



tounesaf.org



Konrad
Adenauer
Stiftung

جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور

أبناء إبراهيم على أرض تونس

تنسيق وإشراف :
وفاء محفوظي



تقديم

وفاء محفوظي¹

لطالما اعتبرت تونس دولة لا تتخذ مسألة الأقليات الدينية فيها حيزاً من اهتمام الرأي العام نظراً لوجود أغلبية ساحقة مسلمة خلافاً لكثير من الدول العربية التي تشكل فيها الأزمات الطائفية هاجساً معيشياً، وقد عُرف عن التونسيين تفاخرهم بكونهم منفتحون على مختلف الثقافات والحضارات ويتسامون بقدر كبير من المرونة في التعامل مع الآخر بكل ما يحمله من زخم هنوي، سواء تمظهر عبر اللغة أو اللون أو الدين أو المرجعية الثقافية، حتى أن الترويج عالمياً لزيارة تونس كان يتم عبر شعار «بلد التسامح». يمكن في هذا الإطار استحضار مشهد سنوي اعتاده الجميع وهو الصبح الإعلامي الذي كان يرافق احتفالات اليهود بالحج كل سنة إلى معبد الغربية بجزيرة جربة ولا يمكن لأحد حتماً أن ينسى التهليل الرسمي والشعبي بزيارة البابا يوحنا بولس الثاني سنة 1998.

لهذا الانفتاح المعاصر عمقه التاريخي منذ تأسيس قرطاج سنة 814 قبل الميلاد، فقد تعاقبت الحضارات على هذه الرقعة الجغرافية طيلة قرون فتبلاست بطابع غزاتها وفاتحاتها وتشكلت ثقافتها عبر تراكم التجارب الإنسانية لساكنيها من مختلف الأعراق والأديان والألسنة والألوان وليس أدل على ذلك من ثراء اللهجة التونسية التي تنهل من معجم البربر والعرب والمعجم. وقد عرفت تونس في القرن التاسع عشر تكريساً لهذا الثقل الحضاري والتنوع الإثني من خلال ما أقره عهد الأمان سنة 1857 بتأكيد المساواة بين سكان الإيالة على اختلاف ألوانهم وأديانهم فيسائر الحقوق والواجبات.

للتونسي إذن الحق في التفاخر بعظمة إرثه الحضاري والتّقافي والقانوني في ما يتعلق بتعزيز فكرة التعايش في ظل الاختلاف وله الحق حتماً في استهجان حصول

¹ عضو بجمعية تونس الفتاة

بالمشورة ويرفعه إلينا ولنا النّظر في الإمضاء أو التّخفيف ما أمكن أو الإذن بإعادة النّظر...»

«الأسوأة بين المسلم وغيره من سكّان الإيالة في استحقاق الإنصاف لأنّ إستحقاقه لذلك يوسف الإنسانية لا بغيه من الأوصاف والعدل في الأرض هو الميزان المستوي يؤخذ به الفعل من المبطل وللضعف من القوي...»

«إنّ الذّممي من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه ولا يُمنع من إجراء ما يلزم ديانته ولا يذهبون مجاهدهم ويكون لها الأمان من الإذية والامتحان لأنّ ذمته تقضي أنّ لهم ما لنا وعليهم ما علينا.»

«إنّ سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم لهم المساواة في الأمور العرفية والقوانين العادلة لا فضل لأحدهم على الآخر في ذلك.».

جرائم ذات خلفيّة عرقية أو طائفية على غرار جريمة ذبح القس البولوني في فيفري 2011 التي أثارت ردود فعل غاضبة إزاء ما قد يوصف بكونه جريمة كراهية، وبغض النظر عن وقائع ارتكاب الجريمة التي تبيّن فيما بعد أنها لا تحمل أي خلفيات دينية، فقد مثلّت حدثاً فارقاً في لحظة فارقة في تاريخ تونس. جريمة كهذه في ظل حمّى ثورة 2011 لا يمكن أن تمرّ مرور الكرام.

الثّورة المجيدة لسنة 2011 أعطت للتونسيين القدرة على تخطي الحدود التي وضعها النظام السياسي الرسمي وخاصة كسر التابوهات ومثلّت فرصة للأقلّيات العرقية والدينيّة للاحتجاج بصوت عال ضدّ ما تتعرّض له من تمييز ولتسقط بذلك القناع حول أسطورة الانفتاح والتّسامح.

شهدت السّنوات القليلة التي تلت الثّورة زخماً من الأحداث السياسيّة والأزمات الاجتماعيّة على غرار اكتساح الجماعات المتشدّدة للفضاء العام وحمى الالتحاق بداعش ورفض تعين غير المسلمين في مناصب سياسية والتي كشفت جزءاً من «محنة الأقلّيات الدينية» في بلد يتّسم بالانفتاح والتّسامح ليثار السؤال حول «ما إذا كانت تونس فعلاً بلداً تتعايش فيه الأقلّيات المذهبية بهدوء أو بلداً يكرّس سياسة التّهميش ضدّ غير المسلمين عبر تجاهل وجودهم ورفض بروزهم إلى العلن كطائفة؟».

لقد مثلّت تلك الأحداث دافعاً لجمعية تونس الفتاة للخوض في واقع تعايش أبناء إبراهيم عليه السلام على أرض تونس من خلال استحضار نماذج مختلفة للاحتفاء بالعمق الحضاري لتونس باعتبارها ناتجاً لتراكم تجربة انسانية ثرية قائمة على التّفاعل الإيجابي وإحياء للذاكرة الوطنية بشكل غير انتقائي أو إقصائي لإعادة الاعتبار للفرد التونسي بغضّ النّظر عن معتقداته الدينية.

ليسمح القارئ بأن ندعوه إلى التأمل في بعض بنود عهد الأمان عليه يجد فيه صورة بلّغة عن تونس التعدد والمساواة.

«الأمان لسائر رعيتنا وسكن إيتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان في أجسادهم المكرّمة وأموالهم المحترمة وأعراضهم المحترمة إلاّ بحقّ يوجبه نظر المجلس

تاریخ التّعايش السّلّمی بین الديانات فی تونس¹

ناجي جلو²

سوف أحاول أن أعطي بعض النماذج لهذا التعايش الديني الذي ميّز إفريقيّة³ طيلة الفترة الكلاسيكية الإسلاميّة بدءاً بالعهد الأغلبي ثم الفاطمي وصولاً إلى العهد الزيري لنقف على أنّ ما يشاع عن النّقاء الديني والعرقي بهذه البلاد هو مجرّد وهم.⁴

سأذكر أمثلة من العهد الأغلبي(909-800 م/184-296 هـ) وهو العهد الذي عرفت إفريقيّة خلاله وجود مجموعات دينيّة بين الديانتين تجسّد ما يمكن تسميته بظاهرة «المسلم المسيحي» ذلك أنّ بعض المجموعات اعتمدت الدين الإسلامي ولكنها ظلت متمسّكة بأصولها المسيحيّة.

مثال أول : عثر على شاهد قبر في مدينة سوسة يرجع إلى سنة 869 ميلادي أوصى صاحبه، وكان قد اعتنق الإسلام، أن يكتب على قبريه أنه يشهد أنّ محمداً عبد الله ورسوله وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وفيسر ذلك بكونه لم يرد أن يضع عيسىنبي المسيحيّة في منزلة أقلّ من محمد نبي الإسلام.

¹ مداخلة منقوله بتصرّف.

² أستاذ التاريخ والآثار الإسلاميّة بجامعة منوبة

³ تميّزت إفريقيّة منذ الفترة الرومانية عن باقي الإمبراطورية بأهميّة التّمازج الديني: بعل حمون البوني أصبح ساتورن وانصهرت تائياً في ايزيروس المصرية. وفي جاما (زاما) حيث هزم حتّبعل، يوجد جامع ينسب لولي صالح يسمى سيدى أنبيل ككایة عن حتّبعل القرطاجي.

⁴ ذكر المحاضر بما تضمنه بيان «داعش» الذي دعا نصارى سوريا إلى اعتناق الإسلام أو تهديدهم بسب النساء، ليسجل هذه المفارقة التي تميّز فترة ما بعد الحادّة من تشدد ديني مقابل ما عرفه التاريخ الإسلامي الوسيط من انفتاح وتسامح.

فنجد في مدينة تستور البيعة اليهودية⁶ ملاصقة للمسجد وفي مدينة غار الملح أيضاً يوجد مسجد وكنيسة متلاصقين ولا يزال أهالي تونس يزورون البيض في رأس السنة محافظين بذلك على عادة قديمة لإفريقية البربرية المسيحية. طبعاً ينبغي أن نشير إلى أنَّ الهوية شيء متتحول وتونس كانت تاريخياً من أهمِّ البلدان المسيحية وقدّمت شخصيات مسيحية مهمة على غرار تارتيليان⁷ وسانت أوغستن⁸.

سوف أعود إلى فترة العصر الوسيط حيث أنَّ الكثير من القوانين المعتمدة آنذاك في الفقه الإسلامي بخصوص أهل الذمة مستمدّة من القوانين الرومانية التي كانت تنظم عيش اليهود. عرفت بداية القرن الثاني للهجرة توافداً ملفتاً لليهود من المشرق إلى إفريقيا ومنذ تلك الفترة شُكّل اليهود وحدة اجتماعية متفرّدة تتعالى مع المسلمين والنصارى وموزعة تقرّباً على كامل إفريقيا، ويصف المقدسى في القرن العاشر بلاد المغرب بأنّها بلاد كثيرة اليهود، وتظهر وثائق الجنية⁹ تمرّكاً هاماً لليهود بالقيروان أين كان لهم حيٌّ خاصٌّ بهم سمّي بحيٍّ خير فضلاً عن سوق ومقبرة وتنظيم يمثلهم أمام السلطة، وفي الساحل كانوا يشتغلون في تجارة النسيج مع مصر والأندلس. في بداية العهد الأغلبي، كان لليهود بيع ومدارس ومحاكم في مدینتي سوسة وصفاقس في حين عذّ المجمع اليهودي بالقيروان في العهد الصنهاجي من أكبر المجامع في العالم. تذكر فتاوى المازري والقابسي والخمي أنَّ اليهود كانوا أيضاً يتساكنون في نفس أحياء المسلمين أي أنَّ ظاهرة الملة كعزل

⁶ تسمية لكتيس اليهود.

⁷ كاتب مسيحي شهير في العهد الروماني.

⁸ قديس وفيلسوف قروطيجي ولد سنة 354 ميلادي بطاغست (سوق أهراس الجزائرية) من أمٍّ مسيحية وأب وثني ولم يعتنق المسيحية إلا في أواخر عمره. نشأ أوغستان وتعلم بقسطنطينية وانتقل إلى قرطاجة ومنها إلى إيطاليا قبل عودته إلى إيكوسيوس (الجزائر) حيث تزهد ومات هناك.

⁹ مجموعة الأوراق والوثائق التي لا يجوز إبادتها أو إهمالها وفقاً للديانة اليهودية وخصوصاً إذا ضمّت اسم الله بين ثيابها ويتم تخزينها في غرفة معزولة في الكنيس أو المعبد. تعتبر الجنية التي عثر عليها في معبد بن عزرا في القاهرة من أهم مجموعات الجنية في العالم.

لمزيد من التفاصيل الإطلاع على مؤلف «اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنية»، محسن محمد الوقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.

مثال ثاني : دخلت نصرانية الإسلام فقالت أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله وأنَّ عيسى روح الله وكلمته، ولما سُئل الإمام سحنون صاحب المدونة بشأنها حين وفاتها وأشار بدقنها في مقبرة المسلمين.

نستحضر أيضاً بعض الأمثلة من العهد الزييري (1156-975 م/362-543 هـ).

مثال أول : يتعلّق بالمهدى ابن تومرت⁵ الذي صلّى في مدينة تونس صلاة الجنائز على يهودي لأنَّه كان في حياته يعيش كالمسلمين.

مثال ثالث : تغزل الأمير تميم ابن المعز بن باديس بزوجته النصرانية بهذه الأبيات الجميلة قائلاً :

أليس الله يعلم أنْ قلبي يحبّك أيها الوجه المليح
وأهوى لفظك العذب المفدى إذا درس الذي قال المسيح
أظاهر غيركم بالولد عمداً ووذكم هو الولد الصّحيح
وفيكم أشتهي عيد النصارى وأصواتاً لها لحن فصيح

من المفارقات أن يقال هذا في الفترة الكلاسيكية ولكنَّ تتصوّروا ما يمكن أن يحصل لو تجراً رئيس دولة إسلامية اليوم على التغزل بزوجته النصرانية.

مثال ثالث : سواد المناظرات الدينية بين المسلمين والمسيحيين في القيروان أثناء الفترة الزييرية عملاً بما كان أيام المأمون بالعراق وأشهرها المناظرة التي جمعت الفقيه ابن التبان بنصراني من السكان بمحضر عام القيروان عبد الله بن محمد الكاتب.

مثال رابع : لما استولى جورج الأنطاكي قائد الجيش النورماني على المهدية، لجأ المسلمين إلى النصارى واختبئوا في الكنائس.

لا تزال إلى اليوم بعض المعالم الدينية والممارسات الاجتماعية شاهدة على ما كان سائداً من التّلاقي والتّعايش بين معتنقي الديانة الإسلامية والمسيحية واليهودية

⁵ أبو عبد الله محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس الذي أدعى أنه المهدى المنتظر.

النّصوص تذكر بأنّ مسيحيي إفريقيا كانوا يشاركون في عملية القرصنة ضدّ مسيحيي صقلية وبباقي العالم المسيحي. تظهر النّصوص أنّ نصارى إفريقيا انخرطوا باكراً في حركة التعليم - خلافاً لما كان سائراً في مصر. فتعلّموا اللغة العربية ولقّنوها لأبنائهم بل كان البعض منها حسب فتاوى سحنون يعلم أبناءه القرآن كما كانت الكتاتيب تستقبل أبناء النّصارى فأصبحت اللغة العربية منذ القرن العاشر ميلادي اللغة الأساسية لتحرير العقود المبرمة بين المسيحيين فيما بينهم وكذلك بدأت ظاهرة تعريب الأسماء مع المحافظة على الديانة المسيحية.

لا ننسى ذكر الديانة المانوية (الصّابئة) التي تواجدت منذ العهد الروماني بإفريقيا وظلت منتشرة في العهد الأغليبي وكان رئيس الكنيسة المانوية آنذاك تونسياً ويسمى أبوهلال الديهوري، ومن مظاهر التّسامح الديني آنذاك أنّ العالم سليمان الفراء، أحد النّخب المانوية في العهد الأغليبي، كان قريباً من أوساط المعتزلة.

أختتم بكلمة حول المدرسة التّلمودية بالقيروان. عندما نتحدث اليوم عن القيروان يكون ذلك باعتبارها من أبرز المدن الإسلامية، ذلك صحيح طبعاً، ولكن القيروان جمعت في العهد الأغليبيين المدرسة الفقهية السنّية والمدرسة التّلمودية والمدرسة الطّبّية اليهودية خاصة، فكما اشتهرت سحنون والقابسي والسيوري اشتهرت بالطّبّيب العالم أبي إسحاق بن سليمان الإسرائيلي أستاذ ابن الجزار الشّيعي وأبى سهل دونش ابن تميم¹¹. كانت القيروان مركزاً لتعيش الشّيعة والسنّة والخوارج ومثلت رمزاً لتعيش المذاهب الإسلامية وتعيش المسلمين مع غيرهم حتى أنها أصبحت أهمّ مركز لدراسة تلمود أورشليم. بعد ما لحق القيروان من غزو وتشتت لأهاليها، احتضنت المهدية بعض مراكز الدراسات العربية وكذلك قلعة بنو حماد أيام الدولة الحمويدية.

¹¹ كلاهما ساهم في بناء المدرسة التّلمودية وتطويرها في العهد الصّنهاجي. دونش ابن تميم هو صاحب شرح صفر التّكوين الذي وضعه سنة 955 هجري باللغة العربية وهو يعده محاولة تأثيّرية حول الإسهامات الإفريقية والعربية في مجال الشّريعة الموسوية.

اليهود في حيّ خاص لم تكن متفشّية في تلك الفترة بل ظهرت في فترات متّأخرة نسبياً.

نؤكّد فيما يتعلّق بالمسيحيين أنّ نصارى إفريقيا مثلوا نسبة هامة من سكّان البلاد حتى القرن الثاني عشر ميلادي تاريخ بداية الإسلام¹⁰ وتذكر المصادر التاريخية التعايش السّلمي الذي طبع العلاقات بينهم وبين المسلمين كحافظ شجاع نصارى إفريقيا على الاستعراب والاندماج في طرق عربية إسلامية وهو ما يفسّر بشكل ما اندثار المسيحية تدريجياً في تونس في حين أنها صمدت في مصر والشّام. لم يفرض الخراج على النّصارى حتّى ولادة حسان بن النّعمان وترك لهم حرّية ممارسة الطّقوس الدينية فظلّت الكنائس مفتوحة خلافاً للتّوجّه الفقهي الصّارم في تطبيق قانون أهل الذّمة. تميّزت إفريقية إذن بكثير من التّسامح، مثلاً تؤكّد الوثائق التاريخية إحداث كنائس خلال الحكم الإسلامي مثل كنيسة القسطاس في القيروان سنة 786 هجري وقد ظلّت الكنيسة الإفريقية تابعة للكرسي البابوي بروما وذكر البابا أدريان الأول أنّ كنيسة إفريقيا لم تكن تقلّ أهميّة عن كنائس إيطاليا وغالياً واسبانيا.

وصلتنا نصوص عن الحياة الإدارية والاجتماعية في إفريقيا الوسيطية تبرّز نماذج عن المعاملات اليومية بين النّصارى والMuslimين فكان بإمكان النّصارى رغم صرامة القوانين تربية الخنازير والتجارة في القمح والزيت والقمash مع إيطاليا فضلاً عن مشاركة المسلمين في إحياء أراضي الموالي. كذلك كان الزّواج بالكتابيات شائعاً وقد أفتى الإمام سحنون - رغم صرامة الفقه المالكي - وكذلك البرزلي في الفترة الحفصية بأنّ على الزوج المسلم أن لا يمنع امرأته النّصرانية من شرب الخمر والذهب إلى الكنيسة.

كان المسلمين في القيروان وغيرها من المدن يشاركون النّصارى أعيادهم وواصل النّصارى التّصرف في أحباس كنائسهم وشاركوا المسلمين في عملية القرصنة حتّى أنّ

¹⁰ حافظ عدد هام من سكان الأرياف الإفريقية على ديانتهم المسيحية حتّى القرن الثاني عشر ميلادي ولاحظ ابن أبي زيد أنّ النّصارى كانوا يمثلون الأغلبية في عديد القرى حتّى أنّ الإمام سحنون أفتى بعدم بناء مساجد في كثير من قرى إفريقيا لغلبة العنصر المسيحي عليها ويكمّن ملاحظة ذلك من خلال التّقويم الميلادي المنشئ على نقاش القبريات بالقيروان.

دور اليهود في الموسيقى بتونس

د. محمد القرفي¹

عاش اليهود عرقاً وديانة بين العرب والمسلمين في حين اضطهدتهم شعوب أخرى خصوصاً منها المسيحية لاعتقادها أنّ بنى إسرائيل هم قتلة النبي عيسى عليه السلام. وقد تجلّى هذا الحقد من خلال ممارسات المجتمع المسيحي في العصر الوسيط الذي كرس التطرف ضدّهم وضدّ كلِّ من يخالف تعاليم الكنيسة خصوصاً فيمحاكم التفتيش بعد سقوط غرناطة ونهاية الحكم العربي الإسلامي بالأندلس.

ورغم أنَّ الإسلام برأهم من دم المسيح في "سورة النساء" (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم) إلا أن العلاقات بين أتباع الديانتين ظلت متواترة في مختلف مراحل التاريخ تحكمها التجاذبات السياسية والاقتصادية. وبحكم أنّهم كانوا أقلية قليلة ورغم أنّهم ظلّوا منغلقين على عرقهم وديانتهم فقد انصرف اليهود في صلب المجتمعات التي عاشوا فيها واعتنقوا ثقافتها فعاشاً بين مَّدْ وجزر واختلفت مساهماتهم من مكان إلى آخر. ويقول المؤرخ الإسباني Antonio Muñoz Molina في كتابه عن قرطبة الأموية Cordoue des Omeyyades أنَّ اليهود في الأندلس عاشوا بين المسلمين ثلاثة قرون آمنين وشاركوا في شتى الفنون والعلوم من ذلك مثلاً الشاعر الوشاح ابن سهل الأشبيلي.

يرى المتصفح للأخبار التاريخ أنَّ اليهود الذين عاشوا في المجتمعات العربية وخصوصاً في تونس يمكن تصنيفهم إلى نوعين لم يكونا دائماً على وفاق بينهما إلا في الطقوس الدينية والممارسات العامة: اليهودي العربي واليهودي الأوروبي. فاليهود العرب كانوا منتشرين في مختلف مدن الإيالة التونسية وخاصة في العاصمة والمدن الساحلية جلّهم من الطبقة الكادحة امتهن بعضهم الموسيقى لأسباب مالية منها ليتقدم في السلم الاجتماعي ولكن بالخصوص بسبب النّظر

مثلَّت الفترة الموحدية بداية للقطيعة فتراجع الوجود المسيحي واليهودي وقد تحدّث ابن ميمون الذي زار بلادنا في 1165 ميلادي عن تراجع الدراسات التّلمودية منذ تلك الفترة.

يمكن القول أنَّ الفترة الكلاسيكية للإسلام الممتدة بداية من القرن الثامن ميلادي إلى حدود القرن الثاني عشر كانت فترة ازدهار الحضارة الإسلامية ومثلَّت فترة تنوع ديني وعرقي ومذهبي في حين اقترنَت فترة التّراجع الحضاري في القرن الثاني عشر بتراجع هذا التنوّع وبذلك تزامن تخلّفنا الحضاري والفكري والعسكري مع بداية انغلاق مجتمعاتنا ورفضنا للآخر. وفي بلادنا فلئن ساد الانغلاق أثناء الفترة الحفصية فقد تميّز العهد المرادي والعثماني بتنوع دينيٍّ وعرقيٍّ انتج خليطاً من اللغات.

تونس هي شرق المغرب ومغرب المشرق وتواجدتها جغرافياً بين عالمين يحتم عليها أن تواصل دورها التاريخي كأرض للقاء ولحوار الحضارات والأديان.

¹ مؤلف موسيقي

النَّاسِعِ عَشْرَ وَضْمِ العَازِفِينَ الْأُورُوبِيِّينَ وَكَذَلِكَ الْأَهْلِيِّينَ مِنَ الْهَوَاةِ وَالْمُحْتَرِفِينَ. وَمِنْ خَلَالِ دراسته للحياة الموسيقية والمسرحية في تونس يتبيَّنُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الاسماء التي ذكرها دارمُون كانوا من يهود الطبقة البورجوازية المتعلمة والميسورة الذين نَزَحُوا من أوروبا متأصلين في حضارتها ولا يمْتَنُون إلى الثقافة العربية بصلة. وقد انحصر نشاطهم في دائرة الثقافة الغربية بين الأدب والصحافة والمسرح وإدارة وكالات العروض وساهموا بقسطٍ وافرٍ في بناء المسارح وقاعات العروض والسينما من أمثلة تابيا Tapia وكوهن Cohen اللذين يعود إليهما الفضل في بناء أقدم المسارح والقاعات العامة.

في القرن العشرين وبعد أربعة قرون من الجمود بدأ المجتمع يراجع مكتسباته الفكرية والثقافية على ضوء المتغيرات التي تحدث حوله والقيم الجديدة التي صار يدعو إليها العالم الحديث. وقد ظلت الحالة على سابق عهدها حتى بداية عصر الميكنة وظهور الفونوغراف والراديو وخروج الموسيقى والغناء من طور المجالس الضيق إلى النطاق الواسع عبر الأدوات الجديدة.

وللتَّدَلِيل على دور اليهود في الموسيقى التَّونسِيَّة القديمة وخاصة منها الأندلسية، نذكر أَنَّه كان من بين الأعضاء الواحد والسبعين المؤسِّسين للجمعية الرشيدية للموسيقى التَّونسِيَّة عام 1934 أربعة مواطنين يهود من غير الموسيقيين، من بينهم الحكيم فيكتور خيَّاط الذي شغل منصب مساعد رئيس الهيئة المديرة والعازفين لالوبالشيشي وسوسو سلامة كما ضمَّ التَّخت الموسيقي الأول بقيادة المُوسِّيقار محمد التريكي عازف الكمنجه خيلو الصغير وعازف الرباب أَلبير بوطبول وعازف القانون يوسف قنونه وكلهم من طبقة المتعلمين بطريقَة التَّقلِيل الشَّفوي التقليدي.

تقاسم المسلمين واليهود الساحة الموسيقية طوال النصف الأول من القرن العشرين يتنافسون فيما بينهم ولكن دون الغوص في عمق الابداع لأنَّ قوالبهم تقليدية وتعتمد تكرار النماذج القديمة كما ظلَّ شَقَّ منهم على حاله يردد أغاني الزندقة والمجون التي يحبها العامة والنسوة في خلوتهنَّ مثل ليلة شبات. مقابل ذلك كانت الموسيقى المصرية تتقدَّم بفضل أساطينها مثل سيد درويش والقصبجي وعبد الوهاب وأيضا

السيدة التي كان المجتمع الإسلامي يقيِّم بها العمل الموسيقي ويعتبر ممتهنيه من الرَّعَاعِ وَسَقْطِ المَتَاعِ. فقد لجأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ إِلَى الغناء "الْجَادُ" خَفِيَّةً وَفِي الْطَّرِقِ والزَّوَّاِيَا وَانْغَمِسَ الْبَقِيَّةَ فِي "الْهَلْسُ" الَّذِي كَانَ تَوْفِرُ الْمَحَلَّاتُ الْعَامَّةُ مُثْلِ مَقَاهِي الْطَّرِبِ وَالْغَنَاءِ الشَّعْبِيِّ وَخَمَارَاتِ الْيَهُودِ. وَهَكُذا وَجَدَ الْمُوسِّيقيُّونَ الْيَهُودُ أَنفُسَهُمْ فِي السَّاحَةِ دُونَ مَنَاسَةٍ تُذَكَّرُ فَاسْتَفَرُدُوا بِالْقَطَاعِ بَدِئًا مِنْ أَبْسَطِ أَفْرَاجِ الْمَجَمُوعِ إِلَى أَرْقَى مَنَاسَبَاتِ قَصُورِ الْحَكَامِ وَالْأَثْرَيَاءِ وَاسْتَسَاغُ النَّاسُ ذَلِكَ لَمَا كَانَ يَتَسَمُّ بِهِ الْيَهُودُ مِنْ تَحْرِرٍ أَخْلَاقِيٍّ وَاخْتِلَاطِ بَيْنِ الْجَنِسَيْنِ فِي أَمَانِ اللَّهُوِ الَّتِي تَوَفَّرُ الْغَنَاءُ وَالرَّقْصُ. وَيُذَكَّرُ أَنَّ الْحَفَلَاتِ الْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ كَانَ يَؤْمِنُهَا الْمُوسِّيقيُّونَ الْيَهُودُ أَوْ الْعَمَيَانُ مِنْ عَوَادَةِ الْقَنْطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَفِي أَرْشِيفِ الدُّولَةِ التَّونسِيَّةِ رَسَائِلُ مِنْ عَامِ 1896-1904 مُوجَّهَةً إِلَى الْحُكُومَةِ وَرَئِيسِ الْمَجْلِسِ الْبَلْدِيِّ بِالْحَاضِرَةِ وَإِلَى الْمَقِيمِ الْفَرَنْسِيِّ مِنْ مُوسِّيقيِّيْنَ عَمَيَانَ مُسْلِمِيْنَ وَيَهُودَ ضَعَفَاءَ الْحَالِ يَطْلُبُونَ إِعْفَاءَهُمْ مِنْ ضَرِيَّةِ الْمَحَصُولَاتِ الَّتِي كَانَتْ مَوْظَفَةً عَلَيْهِمْ. كَمَا تَجَدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ بَلَاطَ عَلِيِّ بَايِ (1882-1902) كَانَ يَسْتَقْبِلُ أَسْبُوعِيًّا فَرْقَةً مِنَ الْيَهُودِ تَعْلَمُ عَنْهُ حَصْرِيَا وَلَا تَغْنِي خَارِجَ بَلَاطِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ كَمَا أَنَّ أَحَدَ أَثْرَيَاءِ الْقَرْنِ الْمَاضِيِّ كَانَ عَشِيقَتُهُ مَطْرَبَةً يَهُودِيَّةً بَنِي لَهَا قَصْرَ الرَّزْفِيرِ بِالْمَرْسِيِّ لَتَغْنِيَ لَهُ وَحْدَهُ.

وَقَدْ تَحَدَّثُ الرَّحَالَةُ الْأُورُوبِيُّونَ أَمْثَالَ Léon Michel Muskau Pükler وَكَذَلِكَ الْمُؤْرِخُونَ التَّونسِيُّونَ مُثَلَّ بِيرِمِ الْخَامِسِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانِ الْحَشَائِشِيِّ عَنِ النَّظَرَةِ التَّحْقِيرِيَّةِ لِلْمُوسِيَقِيِّ وَأَصْحَابِهِ يَهُودًا كَانُوا أَوْ مُسْلِمِيْنَ كَمَا تَضَمَّنَ كِتَابَ الصَّادِقِ الرَّزْقِيِّ "الْأَغَانِيِّ التَّونسِيَّةِ" عَدِيدَ الْأَمْثَلَةِ الْواضِحةِ لِهَذَا الْمَوْضِعِ.

أَمَّا الْيَهُودُ الْأُورُوبِيُّونَ فَقَدْ كَانُوا مُتَشَبِّهِنَ بِ ثَقَافَةِ الْغَرْبِ وَمُتَعَلِّمِينَ بِمُوسِيقَاهُ فَارِتَادِ أَطْفَالُهُمُ الْمَدَارِسُ الْفَرَنْسِيَّةُ وَالْإِيطَالِيَّةُ وَتَعْلَمُ الْمُوْهُوبُونَ مِنْهُمُ الْمُوسِيَقِيِّ الْأُورُوبِيِّ وَتَأَلَّقُ بَعْضُهُمْ فِيهَا مُثَلَّ عَازِفَةِ الْبِيَانُو Roberte Mammou وَيُرْوِي Henry Dunant مؤسس الصليب الأحمر الدولي الذي زار تونس في أواسط القرن التاسع عشر أَنَّ الإِيطَالِيَّيْنَ كَانُوا لَهُمْ عَامَ 1856 نَادِي ثَقَافِيَ circolo europeo di Tunisi به أُوركَسْتَرا فيلهارموني يستضيف أحياناً عازفين بارعين من أوروبا. كما تَحدَثَ مؤرخ الْوَقَاعَ Raoul Darmon عن تَأْسِيسِ أَوَّلِ أُوركَسْتَرا سِيمِفُونِيِّ في أَوَاخِرِ الْقَرْنِ

LES PÈRES BLANCS ET LA CULTURE TUNISIENNE 87 ANS DE L'IBLA

Jean Fontaine¹

C'est par la fin que je vais commencer. L'Ibla, maison fondée par des prêtres catholiques européens, a fait son entrée dans l'Encyclopédie tunisienne (*al-Mawsû'a l-tûnusîyya*) publiée l'an dernier par l'académie Bayt al-Hikma, non pas à la lettre *mîm* pour *Ma'had al-âdâb al-'arabiyya*, mais à la lettre *alîf* pour Ibla. Autre chose, la revue IBLA créée en 1937 par ces mêmes prêtres catholiques européens est dirigée aujourd'hui par une équipe de laïcs tunisiens musulmans. Nous considérons ces deux faits comme une preuve de notre réussite.

1. Genèse

Les Pères Blancs sont arrivés en Tunisie en 1875². Le Cardinal Lavigerie qui les a fondés en Algérie sept ans plus tôt les envoie à Carthage pour créer le musée³, à La Marsa en vue d'un collège qui deviendra plus tard le lycée Carnot à Tunis, et à Thibar où ils bâtiennent une ferme qui produit encore une bonne liqueur, la Thibarine⁴.

L'Ibla commence le 18 novembre 1926 à la ferme de Boukhris près de l'actuel cimetière américain de La Marsa⁵, sous l'appellation «Foyer d'études». Le Père Henri Marchal⁶ en a l'idée, après l'échec des Pères Blancs à Ghardaïa dû à leur ignorance de l'arabe littéraire. La

بمساهمة اليهود المصريين الذين وجدوا مناخاً ملائماً للإبداع والتألق نذكر منهم الملحن داود حسني والمطربة ليلى (Elie) مراد وأخاهما منير (Maurice) مراد.

نلاحظ في هذا السياق أنَّ المناخ الاجتماعي ومكوناته الثقافية وكذلك طموحاته الحضارية تلعب دوراً أساسياً في التكوين العام للموسيقي وبلورة هواجس الإبداع عنده وتجدد بقدر كبير قدرته على البراعة والإبتكار. ولنا في ذلك أمثلة الموسيقيين اليهود Gustave Mahler في ألمانيا و Elmer Bernstein في أمريكا Sergei Prokofiev في روسيا وغيرهم الذين ما كانوا ليبلغوا شأنًا عالميًّا لو عاشوا في مجتمع جامد.

أختتم بالقول بإنَّ دور اليهود في الموسيقى التونسية في القرن العشرين بزخمه الهائل يستلزم دراسة معمقة وموضوعية تعتمد كل الوثائق الممكنة لتقديره وتحديد مداه.

¹ Prêtre et ancien directeur de l'Institut Des Lettres Arabes.

² al-CHARFI `Abd al-Majîd, «al-Haraka al-tabchîriyya fî l-qarn al-tâsi` achar», *Hawliyyât al-jâmi'a l-tûnusîyya*, n° 8, 1971, p. 131-156 ; voir étude de Mikel de EPALZA, «Un musulman estudia las misiones católicas en paísmusulman», *Almenara*, n° 4, 1973, p. 231-238.

³ GUTRON Clémentine, «Le musée Lavigerie de Saint Louis de Carthage 1875-1932», IBLA, n°194 (2e semestre 2004) p. 169-180.

⁴ Sur les présupposés de cette décision, voir RENAULT François, *Le Cardinal Lavigerie (1825-1892). L'Eglise, l'Afrique et la France*, Paris, Fayard, 1992, p. 434-435.

⁵ LEVRAT Jacques, *Une expérience de dialogue. Les Centres d'Etudes chrétiens en monde musulman*, Altenberge, Christlich-IslamischesSchriftum, 1987, p. 48-63.

⁶ (1875-1957) de 1905 à 1912 à Ghardaïa, dans les Aurès et en Kabylie, puis jusqu'en 1947 Assistant Général des Pères Blancs à Maison-Carrée (Algier).

alors que le véritable auteur du livre est un Père Blanc, Joseph Sallam¹⁶. En réalité, les confrères ne soutiennent pas l'auteur en raison de sa position progressiste envers la femme, mais parce qu'il s'attaque à la carapace figée du dogme musulman tel qu'il leur apparaissait à l'époque. Ce qui séduit chez Haddad, c'est sa distinction entre les vérités éternelles sur Dieu et les applications pratiques telles que la polygamie. Cinquante ans après, le journal al-Sadâ se fait encore l'écho de cette opinion¹⁷. Les confrères s'initient à la culture à travers les concerts de musique arabe classique, malouf) et la publient la revue¹⁸.

Certains ont considéré l'Ibla comme un organisme dépendant de la politique extérieure française¹⁹ mais la tutelle est celle du Vatican. Le 16 novembre 1954, durant la visite du Cardinal Tisserant, Secrétaire au Vatican pour l'Église Orientale, sont présents à la conférence donnée à cette occasion Sadok Mokaddem et Hédi Nouira²⁰.

Après la guerre, les activités de l'Ibla se divisent en deux. La maison d'études part à La Manouba en 1948, puis à Rome en 1964 où elle deviendra le *Pontificio Istituto di Studi Arabi e d'Islamistica*. La maison devient un centre d'activités culturelles et sociales : cours du soir, collaboration avec l'UGET, bienfaisance.

3. La Revue

Les relations entre les Musulmans et l'élite européenne chrétienne auront comme instrument privilégié la revue *IBLA*. Elle commence en 1937 comme un bulletin de liaison polycopié pour les Européens qui veulent connaître les Tunisiens²¹. Elle est lue par les colons qui souhaitent mieux employer leurs ouvriers agricoles. Elle cherche à éclairer et rapprocher les deux communautés : compréhension du

¹⁶ On reproche à Tahar Haddad de reprendre sur le Prophète ce que disent les missionnaires chrétiens et de faire l'éloge des prêtres. Voir IBN MRAD Muhammad al-Sâlih, *al-Hidâd 'alâimra'at al-Haddâd*, Tunis, 1931, p. 6 et 12.

¹⁷ Mise au point dans *al-Sadâ*, samedi 3 octobre 1992.

¹⁸ BENDANA-MECHRI Kmar, «Revues culturelles françaises à Tunis pendant la seconde guerre mondiale», suivi de «Ibla, la revue tunisienne des Pères Blancs», *La Revue des Revues*, n° 12-13, 1992, p. 63-84.

¹⁹ THIOUT Michel, «IBLA ou la véritable amitié franco-tunisienne», dans *La Tunisie*, Paris, Cahiers Charles de Foucauld, 1950, p. 252-264.

²⁰ *IBLA*, n° 68 (3^e trimestre 1954) p. 315-326.

²¹ Sur les débuts de la revue, voir DEMEERSEMAN Gérard, «La fondation de la Revue *IBLA*», *IBLA*, n° 179 (1997) 5-15.

maison prend le nom d'*Institut des Belles Lettres Arabes* le 30 mars 1931. Elle occupe son siège actuel à la rue Jamaa al-Haoua le 15 février 1932.

Les Pères assistent à des cours à la Khaldouniyya⁷. La formation en langue arabe est jugée primordiale : devenir arabisant est la qualification de base. Le Père Joseph Sallam⁸, Égyptien, donne une conférence au Cercle Littéraire de l'Association des Anciens de Sadiki, le 4 février 1929, sur «Descartes et Taha Husayn» et la reprend à la Khaldouniyya le 4 mars. Il s'ensuit du remous dans la presse⁹. Il donne une autre conférence à la Khaldouniya le 4 novembre 1929 : un certain Bourguiba lui apporte la contradiction. Un pamphlet de méfiance est publié contre les Pères à Kairouan¹⁰.

Dès 1928, des brochures sont distribuées aux étudiants de l'Ibla pour leur faciliter la connaissance du milieu tunisien, de la culture arabe et de la religion musulmane : contes, poésies, proverbes, conversations, traduits en français avec introduction et glossaire. Elles forment deux séries : *Les Cahiers Tunisiens et Documents Tunisiens*¹¹.

2. Développement

Quand Tahar Haddad publie son livre sur la femme¹², le Père Roberto Foca, Italien¹³, écrit un article élogieux dans la revue *En Terre d'Islam*¹⁴ et le P. André Demeerseman¹⁵ dans *La Dépêche*. Le bruit court

⁷ SAYADI Mongi, *al-Jam'iyya al-Khalduyya* 1896-1958, Tunis, Maison Tunisienne de l'Édition, 1975, 269 p.

⁸ 1878-1947, à l'Ibla du 18 novembre 1926 au 2 décembre 1933.

⁹ al-MAHIDI Muhammad Sâlih, *al-Nadwa*, I/10, octobre 1953 et polémique entre *al-Nahda*, 12, 22 et 24 mars 1929, et *al-Zahra*, 18 mars 1929, sans compter Tunis-Socialiste, 23 mars 1929.

¹⁰ Une photo imprimée circulait alors, où l'on voyait un chaykh aux côtés du P. Foca avec une légende en arabe : «Le chaykh, haut diplômé de la Zitouna, avec son gourou (*ma'tûh*) le Père Foca, le missionnaire catholique de l'Église».

¹¹ BACCOUCHE Taïeb, «Bibliographie critique des études linguistiques concernant la Tunisie», *Revue tunisienne des sciences sociales*, VII/20, mars 1970, p. 239-286.

¹² *Imra'atu-nâfi l-charî' awa l-mujtama'*, Tunis, al-Matba'a al-Fanniyya, 1930.

¹³ 1877-1973, à l'Ibla du 18 novembre 1926 au 22 janvier 1931.

¹⁴ «Modernisme en Islam. L'esprit et la lettre», *En Terre d'Islam*, n° 43, janvier 1931, p. 2-11.

¹⁵ 1901-1993, à l'Ibla du 18 septembre 1928 au 8 juillet 1988.

favorables au Protectorat français²⁶. Mais la presse libérale²⁷ et progressiste²⁸ le soutient. On intitule en manchette : «Restez dans votre sacristie !»²⁹. C'est alors que la Revue publie de nombreuses études sur la personnalité tunisienne, essentielles pour le développement du pays.

La période après l'indépendance de la Tunisie (1956) est marquée par la décadence du Cercle des Amitiés Tunisiennes qui disparaît en 1964. Quarante Tunisiens y firent des conférences qui attiraient entre 80 et 100 personnes. La Revue fait une place plus grande aux problèmes de la Tunisie, à sa «personnalité de base»³⁰, à la qualité maîtresse du Tunisiens³¹, à la formulation de l'idée de Patrie en Tunisie, à la genèse et à la formation de la conscience nationale. Elle se veut le reflet d'un pays qui fait l'expérience de son indépendance, soucieuse d'être dans l'actualité³².

4. La culture tunisienne

Cette évolution continue. Elle dépend des personnes qui travaillent à l'Ibla et de la formation du directeur. En conséquence, la manière dont elle a collaboré à la connaissance de la culture tunisienne a changé. Il faudrait la diviser en périodes. Dès le premier numéro, en avril 1937, on trouve un article sur «les communautés juives et chrétiennes au temps de Mahomet». En parcourant l'ensemble des 30.000 pages de la collection, voici quelques chiffres.

²⁶ *Tunisie-France*, 10 février 1953. Voir SID 'Alî, «Muhâwalatfahm al-wâqî' al-tûnusîfî l-arba`înâtwabidâyat al-khamsînât min hâdhâ l-qarnîmajallat al-Abâ' al-BîdhfîTûnus», *Revue d'Histoire Maghrébine*, n° 49-50, juin 1988, p. 159-176.

²⁷ *Le Petit Matin*, 11, 12, 15, 17, 18 février 1953.

²⁸ *Tunis-Socialiste*, 14 février 1953. Sur les positions pro-nationalistes de la Gauche, voir LE TOURNEAU Roger, *Évolution politique de l'Afrique du Nord musulmane 1920-1961*, Paris, Colin, 1962, p. 65-66.

²⁹ Commenté par *Le Monde*, 11 mars 1953 et par *La République Algérienne*, 10 avril 1953.

³⁰ *IBLA*, n° 85, 1^{er} trimestre 1959, p. 1-28 et n° 86, 2^e trimestre 1959, p. 129-146 : unité, diversité, permanence, héritage ethnique et historique, plasticité, complexité et irréductibilité.

³¹ *IBLA*, n° 108, 4^e trimestre 1964, p. 283-316. L'auteur discute les opinions suivantes : respect des formes, esprit de sociabilité, sensibilité, conscience de la valeur personnelle, finesse d'esprit, faculté d'adaptation.

³² Pour le contenu de la revue, voir *Tables analytiques de la revue Ibla 1937-1996*, Tunis, Publications de l'Institut des Belles Lettres Arabes n° 37, 1997, 279 p.

peuple²², guide pour des contacts profonds, insertion de morale universelle. Le tirage atteint 2500 exemplaires en 1944. Une collection parallèle *Le Bled* est basée sur l'arabe dialectal.

Pendant une quinzaine d'années, les articles situent le lecteur sur «les grand-routes de la compréhension franco-tunisienne», disant à chacun des interlocuteurs les chances du monde nouveau que prépare la connaissance des milieux humains. Il s'agit de liquider les préjugés et de reconnaître les légitimes aspirations des Tunisiens. Cela vaudra à l'équipe la sympathie d'intellectuels pourtant peu proches de l'Église, tels que Élie Cohen-Hadria²³, André Duran-Angliviel ou Charles-André Julien.

Dès la libération de Tunis en mai 1943, le problème tunisien est posé avec une acuité nouvelle. L'opinion française accuse les Pères Blancs de l'Ibla d'avoir étudié l'évolution des Tunisiens et de les avoir guidés en leur suggérant des idées qu'eux-mêmes n'avaient pas. Le reproche est naïf et exagéré. Les Tunisiens n'avaient pas besoin des Pères Blancs pour avoir conscience de leur personnalité. La position prise par le Père Demeerseman le 1^{er} janvier 1951, quand il demande «justice et fraternité», marque un tournant. Pendant les événements de janvier 1952, au moment où la Légion Étrangère ratisse le Cap Bon, sa visite sur les lieux est une application des principes édictés²⁴. L'année suivante, à l'occasion d'un débat organisé par François Mauriac au Centre Catholique des Intellectuels Français sur les problèmes d'Afrique du Nord devant la conscience chrétienne, on demande au P. Demeerseman de définir sa position : «Le moment est venu de faire notre examen de conscience... Aucun chrétien n'a le droit de s'incliner aveuglément et en contradiction avec ses principes derrière la discipline d'un groupe ou l'opinion d'une majorité... La politique ne saurait échapper à la morale»²⁵. À la suite de cette prise de position, une violente campagne de presse se déclenche dans les journaux

²² AL-HAMMÂMÎ 'Abd al-Razzâq, *al-Mujtama'* al-tûnusî fi nazar majallat Ibla 1937-57, Tunis, Publications de l'Institut des Belles Lettres Arabes n° 42, 1998, 123 p.

²³ *Du Protectorat à l'Indépendance*, Nice, 1976, p. 245-258.

²⁴ Éditorial du n° 56, 4^e trimestre 1951, daté du 3 février 1952 : «Il faut que chacun prenne ses responsabilités».

²⁵ «L'esprit qui doit nous inspirer», *La Presse*, 1^{er} février 1953.

Conclusion :

Avant de connaître la ligne d'action qui est la sienne aujourd'hui, l'Ibla a hésité quelques années sur la direction à suivre. Celle-ci une fois définie a nécessité un choix du personnel qui allait la mettre en œuvre. Ce ne fut pas toujours sans difficulté.

L'histoire de l'Ibla est celle d'une équipe internationale. Aussi faudrait-il peut-être situer son action davantage dans la perspective de l'évolution de l'Église catholique, à travers l'administration du Vatican, que dans celle des rapports tuniso-français.

Le troisième point à souligner, est l'harmonie recherchée entre des exigences scientifiques de plus en plus élevées et un parti-pris de sympathie envers les réalités tunisiennes étudiées. Rigueur et bienveillance, serait-ce là l'esprit de l'Ibla ?

L'Ibla a toujours évité de s'immiscer dans les affaires politiques et religieuses du pays. Cette option en direction de la culture, cette neutralité positive est un des secrets de sa durée qui en fait un lieu de rencontre entre intellectuels de tous bords.

Au cours des six premières années, la revue publie 30 articles sur les proverbes, les énigmes et les contes, 20 sur la femme, 21 sur les problèmes agricoles, 18 sur les coutumes. Y ont été sauvegardés en arabe tunisien des textes introuvables ailleurs.

En 1944, commence une étape centrée sur trois domaines : la civilisation arabe avec des contributions sur les penseurs musulmans (60 articles en 20 ans), l'ethnographie et la sociologie de terrain (80 articles en 20 ans), le folklore (60 articles en 20 ans). Puis, apparaît la culture sous tous ses aspects : cinéma, théâtre, musique, peinture, jeunesse étudiantine, examens scolaires, bibliothèques, documentation, sports. Depuis 1960, 44 écrivains tunisiens ont eu droit à une introduction accompagnée de la traduction d'un extrait de leurs œuvres. De 1976 à 2010, ce fut une présentation globale. Un numéro spécial sur l'islam en Tunisie comporte les textes de cinq personnalités marquantes³³. Ces dernières années, l'insistance est mise sur l'histoire avec un dossier spécial sur Kairouan vue par les étrangers³⁴.

Au 2^e trimestre 1953, André Demeerseman publie un article de 90 pages : «Soixante ans de pensée tunisienne à travers les revues de langue arabe». Mohamed Mzali affirmera que cet article l'a décidé à publier régulièrement la revue *al-Fikr*. Au moment de la réhabilitation des quartiers aux abords du port de la Goulette en 1967, on apprend que le projet prévoit la destruction d'une partie de la Karraka, le fort de Charles-Quint. Effrayé, Paul Sebag rédige un article sur l'histoire de ce fort et nous demande de le publier en urgence. On change le sommaire du numéro qui allait sortir et on le publie avec illustrations. Le numéro arrive sur la table de Bourguiba qui se met en colère et exige de changer de plan. À titre de curiosité, en 1954, deux articles de Raymond Barre présentent une synthèse de l'économie de la Tunisie.

La revue publie sept articles sur Avicenne, un numéro sur al-Ghazâlî³⁵, cinq articles sur la mystique musulmane³⁶ et quatre sur les penseurs musulmans contemporains³⁷. Elle publie la première un essai de lecture historique des *1001 Nuits*³⁸.

³³ *IBLA*, n° 114-115 (2^e/3^e trimestre 1966) p. 217-290.

³⁴ *IBLA*, n° 209 (1^{er} semestre 2012) p. 15-85.

³⁵ *IBLA*, n° 82 (3^e trimestre 1958) p. 107-228.

³⁶ CASPAR Robert, *IBLA* de 1962 à 1975.

³⁷ CHARTIER Marc, *IBLA* de 1973 à 1976.

³⁸ COUSSONNET Patrice, *IBLA*, n° 155 (1^{er} semestre 1985) p. 85-115.

مساهمة التّونسيين اليهود في الكفاح ضدّ الاستعمار الفرنسي

حبيب القزدغلي¹

على عكس ما قد يتبدّل للأذهان فإنّ البحوث حول تاريخ الجماعات الدينية غير المسلمة التي عاشت بالبلاد التونسية ومنها الجماعة التونسية اليهودية أصبحت متداولة - منذ عقدين على الأقل - في الكلّيات ومخابر البحث التونسية لكن هذه البحوث والرسائل الجامعية بقيت غير معروفة لدى الجمهور الواسع.

اهتمّ مخبر البحث حول التّراث الذي انتمي إليه والذي ينشط بكلية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة، بموضوع تاريخ الأقلّيات ودورها بالبلاد التونسية منذ أكثر من عقدين، أذكر زميلي الأستاذ عبد الكريم العلاقي صاحب أول أطروحة دكتوراه في الجامعة التونسية تناولت دراسة تاريخ الأقلية التونسية اليهودية في النصف الأول من القرن العشرين وقد تمت مناقشتها سنة 1993 وكذلك الزميل رضا بن رجب الذي ناقش سنة 2002 أطروحة دكتوراه حول دور التّونسيين اليهود في مجال المال والأعمال خلال القرنين الثامن والتاسع عشر. هناك فريق كامل من الرّملاء والباحثين الشّباب يشتغلون في هذا المجال باعتباره حقولاً من حقول المعرفة التاريخية في بلادنا مؤكّدين بذلك أنّ التاريخ الوطني في مفهومه الشّامل هو اهتمام بجميع من كان لهم أثر على تطوير هذه البلاد بقطع النظر عن عددهم أو أعرافهم أو دياناتهم. وقد أصدّرنا في هذا المجال العديد من الكتب والمقالات التي اهتمّت بالجماعات الدينية والاثنية التي عاشت في البلاد التونسية كاليونانيّين والروم والإيطاليّين والمالطيين وال المسيحيّين بمختلف تفرّعاتهم. ومن بين هذه الكتب ذكر المؤلّف الجماعي باللغة الفرنسية تحت عنوان «الجماعات اليهودية بالبلاد التونسية» الصادر

¹ أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة

المسّيحي بالقديم. بالنسبة للحركة الوطنية عموما، صحيح إنّ الجزء الفاعل فيها من السّكان كان الجزء التّونسي المسلم، ولكن هذا الإقرار لا يعني إنّ الجزء الآخر من السّكان التّونسيين الغير مسلمين لم يهتموا إطلاقا بمسألة الاستعمار أو لم يكن لهم أي موقف من مظاهر الاستغلال الاستعماري الذي مورس على سكّان البلاد بقطع النظر عن دياناتهم أو أصلهم. صحيح أنه لم يتمّ النّظر لهذا الموضوع بنفس الطّريقة وبنفس المرجعيات لدى كل مجموعة من المجموعات السّكانية بالبلاد التّونسية آنذاك ولم يكن محلّ اهتمامهم بنفس الدرجة التي كانت لدى إخوانهم المسلمين. وهذا الأمر يعدّ طبيعيا فقد كان ينظر إليهم آنذاك باعتبارهم أقلّية دينية أو اثنية أو آنهم أجانب حديثو العهد بالاستقرار في البلاد. لقد بلغ عدد سكان البلاد التّونسية في النّصف الأول من القرن العشرين حوالي مليوني نسمة في حين لم يتجاوز عدد التّونسيين اليهود في أقصى الحالات 100 ألف نسمة كما كانت تقطن البلاد آنذاك جماعات سّكانية أوروبية مسيحية أو مغاربية مسلمة لذا كان من الطّبيعي ألا يكون إسهام الأقلّيات في المعارك الوطنيّة في نفس مستوى إسهام الأكثريّة من سكان البلاد التّونسية. أمّا الملاحظة الثانية، فهيأنّ الأقلّيات الدينية أو الاثنيّة عادة ما تتحاشى للالتقاء بهذا الجمع من المهتمين بهذا الجانب من تاريخنا الوطني المتعدد والمتنوع للحديث معهم حول مثل هذه المواضيع والتي تجدونها بأكثر تفاصيل في الأعمال والبحوث التي سبق وأن ذكرتها والتي سيتمّ تضمين البعض منها في خاتمة هذا المقال.

ينبغي التنبيه إلى أنّ ضعف الحضور على مستوى العدد لا يعكس بالضرورة ضعفا على مستوى التأثير فقد بحثت الأقلّيات الدينية والاثنيّة عن فضاء أو موقع لا يجعلها في مواجهة مباشرة مع الاستعمار - لأنها تعرف حقّ المعرفة أنّ عددها قليل وأنه يتحتم عليها المحافظة بذكاء على وجودها من خلال إتقان بعض المهن والخدق فيها. ولعبت دورا محوريّا في بعض المجالات المالية والتّجارية والمهن التي رفضت الأكثريّة المسلمة تعاطيها أو تشجيع أفرادها على التّخصص فيها لأسباب اجتماعية أو دينية. نذكر مثلا أنّ التّونسيين اليهود اختصوا بتعاطي بعض المهن منها النّشطة

عن مركز النّشر الجامعي سنة 1998 وهو يحتوي على مختلف الورقات التي قدمت في الملتقى التّاريخي الدّولي الذي التّأم في كلية الآداب بمنوبة في شهر فيفري من سنة 1998 حول موضوع تاريخ اليهود في البلاد التّونسية وهو أول ندوة علمية تلتئم في جامعة توجد في بلاد عربية أو إسلامية حول تاريخ اليهود. من المؤسف أنّ العديد من الناس لا تصلهم من أخبار عن مثل هذه النّدوات العلمية إلاّ ما يصدر من شتاائم وأخبار مغلوطة تتعمّد نشرها بعض الأوساط التي لا علاقة مباشرة لها بالشأن العلمي والمعرفي والتي كثيرا ما تنصب نفسها وصيّة على ما يمكن دراسته في الجامعات من بحوث.

إنّي أغتنم هذه المناسبة لأدعوه هؤلاء الذين يعمدون إلى التّهجّم والشتّم في الواقع الاجتماعي إلى قراءة هذه الكتب والمقالات أولاً ثم نقدّها ومناقشتها بهدوء ورصة لأنّ كلّ إنتاج معرفي هو في نهاية الأمر مجهد بحثي أولى قابل للتطوير والإضافة عن طريق النقد البناء وليس عن طريق الرّفض والتحجّر الفكري. لذا وجب أن نشكر هذه الجمعية الفتية التي وفرت لنا الفرصة للالتقاء بهذا الجمع من المهتمين بهذا الجانب من تاريخنا الوطني المتعدد والمتنوع للحديث معهم حول مثل هذه المواضيع والتي تجدونها بأكثر تفاصيل في الأعمال والبحوث التي سبق وأن ذكرتها والتي سيتمّ تضمين البعض منها في خاتمة هذا المقال.

I - إسهامات متنوعة ومواقف متباعدة داخل النّخب التّونسية اليهودية تجاه الاستعمار الفرنسي

إنّ تاريخ البلاد التّونسية حافل بالإسهامات المتنوعة في النّضال ضدّ الاستعمار. لا بدّ هنا من إدراج ملاحظتين: تتمثل الأولى في أنّ الإقرار بالدور الريادي والمحوري الذي كان للحزب الحرّ الدّستوري-الجديد في معارك التحرير والمطالبة باستقلال البلاد لا يمكن أن يؤدّي إلى حصر هذه المساهمة في أعضاء هذا الحزب وقادته وإهمال كلّ الإضافات الأخرى التي تمتّ في إطار المنظمات النقابية أو الشّبابية أو في إطار الأحزاب الأخرى كالحزب الشّيوعي التّونسي أو الحزب الحرّ الدّستوري

اليهود من اضطهاد واقصاء - خاصة في ظروف الأزمات- في عديد البلدان وخاصة في أوروبا الشرقية هو إيجاد وطن قومي يكون خاصاً باليهود يوفر لهم الحماية ويقيهم شرّ الاضطهاد. هذا التيار سيتشكل ويتبلور عبر عدّة مراحل ومحطّات وسيؤدي إلى بروز الحركة الصهيونية العالمية والتي سيكون لها صدى أيضاً في تونس لدى جزء آخر من أفراد النّخبة التونسيّة اليهوديّة. رأى هذا الاتجاه الذي تشكّل في تونس في مطلع عشرينيات القرن الماضي عبر تكوين الجامعة الصهيونية أنَّ الخلاص من الاضطهاد بسبب اعتناق الدّيانة اليهوديّة يمكن في الانخراط في المجهود العالمي لإيجاد وطن قومي يجمع الأقلّيات اليهوديّة المنتشرة حول العالم في أرض واحدة. ومعلوم أنه تم التّوجّه في البداية إلى تحقيق هذه الفكرة في كلِّ من الأرجنتين في أمريكا الجنوبيّة أو أراضي أوغندا في إفريقيا لكنَّ أمام الفشل الذي لقيه هذا المشروع تم التحوّل لتحقيقه على أراضي فلسطين التي ستُصبح بعد الحرب العالميّة الأولى تحت الانتداب البريطاني وإثر الحرب العالميّة الثانية جرى تقسيمها إلى جزأين (جزء للعرب وأخر لليهود) من طرف الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة في شهر نوفمبر 1947 ليتم الاعلان عن تأسيس دولة إسرائيل في شهر ماي 1948 في حين رفض العرب ذلك الحلُّ.

بالإضافة لهذين التيارين، بُرِزَ تيار ثالث ضمن النّخبة اليهوديّة التونسيّة وهو الذي سيتفاعل أصحابه أكثر مع المطالب الاجتماعيّة والسياسيّة للتونسيّن المسلمين وسيكون قريباً من مطالبهم ويسعى إلى الانخراط بتفاوت في العمل من أجل تحقيقها. رأى أفراد هذا الجزء من النّخبة التونسيّة اليهوديّة أنَّ تونس لا يمكن لها أن تبقى إلى الأبد ضمن الإمبراطوريّة الاستعماريّة الفرنسيّة وأنَّ الحل يتمثل في انضمامهم إلى المجهودات المبذولة من خلال العمل صلب الأحزاب والنّقابات قصد العمل على دحر الاستعمار الفرنسي والمطالبة باستقلال البلاد التونسيّة.

II - اتجاهان في مساهمة أفراد النّخبة اليهوديّة في الحركة الوطنيّة والاجتماعيّة التونسيّة

لدى معالجنة نوعية مساهمة النّخبة اليهوديّة التي اهتمّت بالقضيّة الوطنيّة أو جعلتها في مجال اهتمامها يمكن الاستنتاج أنَّ هذا الالتزام بالقضايا المحليّة اتّخذ

الفنيّة بأنواعها من موسيقى وغناء ورقص أو امتهان الرّبا أو المعاملات الماليّة أو بيع الخمر للسكّان المسلمين وهي مهن تفادى السكّان المسلمون تعاطيها لأسباب اجتماعية أو دينيّة معروفة.

إنَّ مثل هذه الأسباب وغيرها جعلت نسبة اليهود المهتمّين بالحركيّ الوطني ضدَّ الاستعمار متواضعة، علماً وأنَّه وجدت ضمن هذه الأقلّية اتجاهات سياسية وفكريّة أخرى ستعمل بدورها على أنَّ يكون لها امتداد وتأثير في صفوف النّخب اليهوديّة التونسيّة، فكما هو معلوم انتشرت في صفوف النّخبة اليهوديّة في النّصف الأول من القرن العشرين أفكار متنوعة وستشقّها تيارات عديدة ومتباينة كان بعضها منتصراً للمحافظة والتّمسك بالديانة اليهوديّة باعتبارها العنصر الوحيد الضامن للتواصل وحدة الجماعة، في حين تأثّر البعض الآخر بالتّيارات التي كانت تشقّ المجموعات اليهوديّة في عديد البلدان الأوروبيّة التي أصبحت البلاد التونسيّة منفتحة عليها بفعل سرعة انتقال الأفكار عبر الفضاء المتوسطي وبحكم انتماء تونس إلى فضاء الإمبراطوريّة الاستعماريّة الفرنسيّة.

ظهر لدى النّخب اليهوديّة التونسيّة التيار الاندماجي الذي دعا إلى انصراف اليهود التونسيّين ضمن الحضارة الفرنسيّة والاستفادة من المبادئ والقيم القائمة على المساواة التي دعت إلى تجسيدها الحضارة الجديدة التي أنشأتها الثورة الفرنسيّة وعبر عن هذا التّوجّه جيل من أبناء التونسيّين اليهود الذين تعلّموا في المدارس الفرنسيّة التي انتشرت في المدن التونسيّة اثر انتصار نظام الحماية وكان لها الفضل في اقتحامهم ضمن مهن جديدة كالمحاماة والطبّ والبنوك وفي سيطرة أفراد هذا الجيل على أفضل المواقع ضمن المجتمع الاستعماري. استنتج أنصار هذا التيار أنَّ الحضارة الفرنسيّة - انطلاقاً من تجربة الثورة الفرنسيّة - ضمنت للفرنسيّين اليهود موقعاً متساوياً في المجتمع الذي يعيشون فيه وأصبحت تجمعهم مع بقية السكّان مفهـة المواطـنة قبل الانتـماء الدينـي وتبـعاً لـذلك تـمـت دعـوة اليـهـود إلى الاستـفـادة من هـذه الفـرـصة التـارـيـخـية التي أـتـاحـتها فـرـنسـا من خـلـال وجـودـها بـالـبـلـادـ التـونـسـيـةـ. فـي نفسـ الـوقـتـ، تـأـثـرـ جـزـءـ آـخـرـ منـ أـفـرـادـ النـّـخـبـةـ التـونـسـيـةـ اليـهـودـيـةـ بماـ كـانـ يـحـصلـ فيـ أـورـوباـ منـ ظـهـورـ تـيـارـاتـ فـكـرـيـةـ قـومـيـةـ رـأـتـ أنـ الـحلـ الـأـمـثـلـ لـمـ كـانـ يـعـانـيـهـ السـكـانـ

اتجاهين : اتجاه ضمن الحركة الدستورية وكان محدودا واتجاهها ثانيا كان ضمن الحركة الاجتماعية بتعييراتها النقابية وتمثل ذلك عبر الانخراط والنضال في مختلف التجارب النقابية أو ضمن الحركة السياسية صلب الحزبين الاشتراكي والشيوعي وكان الانخراط الأكثر ضمن الحزب الشيوعي التونسي.

1 - مشاركة التونسيين اليهود ضمن الحركة الدستورية :

كانت بدايات هذه الحركة قبل الحرب العالمية الأولى في شكل حركة فكرية وصحفية تحت اسم حركة الشباب التونسي أو تونس الفتاة ثم تطورت بعد الحرب لتحول إلى حزب سياسي وهو الحزب الحر الدستوري التونسي الذي تأسس في جوان 1920. صحيح أن قائمة المؤسسين لم تحتو على أسماء تونسيين يهود غير أنه بالعودة إلى التقارير الأمنية وإلى محاضر الاجتماعات أو مذكرات شهود العيان نجد أسماء الذين كانوا حضروا جلسات النقاش حيث كان من ضمنهم محامون وصحافيون تونسيون يهود، لذلك لا يجوز للمؤرخين نفي مشاركة اليهود في الاجتماعات التمهيدية التي حصلت بين أفراد النخبة السياسية التونسية التي عقبت نهاية الحرب العالمية الأولى والتي أقرت مجموعة من التحركات داخل البلاد وخارجها لبلورة المطالب الوطنية والتعریف بها. من بين تلك المبادرات الوطنية التي تم اعتمادها ذكر إرسال الوفود الدستورية إلى فرنسا للاتصال مباشرة بالسلط الفرنسية إضافة إلى تقديم المطالب إلى الباي صاحب السلطة الشرعية - رغم ضعف نفوذه العملي منذ انتصاب الحماية الفرنسية - للحصول على دعمه. إثر التنتائج الهزلية التي أسفرت عنها زيارة الوفد الأول الذي تحول إلى باريس في شهر جوان 1920، سعت النخبة الدستورية إلى تجديد المحاولة في أواخر سنة 1920 وقد توفر حظوظ أكبر لنجاح المسعي تم الحرص على أن يرافق الوفد الدستوري كل من المحامي التونسي اليهودي إيلي زيراح وكذلك المحامي والصحيقي الاشتراكي أندري- دوران أنقليفيال. رغم أن الهدف الأول لوجود هذا الأخير في فرنسا في ذلك الظرف هو حضور المؤتمر الاشتراكي بمدينة تور، فإنه بذل مساعي لكي يستطيع الوفد مقابلة كبرى الشخصيات السياسية في العاصمة الفرنسية وقد تم الحصول على وعد بدراسة المطالب الوطنية مع المقيم العام الجديد الذي تم تعيينه وقتئذ لتسخير شؤون البلاد التونسية. من بين

المحاولات الأخرى للتقارب بين أعضاء من النخبة التونسية بفرعيها المسلم واليهودي يمكن ذكر تجربة الرابطة اليهودية الإسلامية - التي أفرد لها الأستاذ عبد الكريم العلاقي بحثا خاصا- وهي تجربة أخرى للتقارب امتدت بين سنتي 1920 و1921 وكان من نتائجها إصدار صحيفة باللغة الفرنسية حملت عنوان «تونس الجديدة» انتهى محروّوها إلى كلتا الديانتين. من المظاهر الأخرى لسعى الجزء المسلم من النخبة للتقليل من مخاوف التونسيين اليهود وتشجيعهم على الانضمام إلى الحزب الحر الدستوري اقتراحهم أن يتم القسم الذي يرافق الانخراط في الحزب على التوراة عوضا عن القرآن بالنسبة للتونسيين اليهود وهو ما يؤكده التقرير الأمني المحرر بتاريخ 13 أفريل 1922 - في ظروف ما يعرف عند المؤرخين بأزمة شهر أفريل 1922 - حيث يذكر ذلك التقرير أنه تم جلب نسخة من كتاب التوراة إلى مقر الحزب في شارع انجلترا بالعاصمة ليكون جاهزا للقسم كلما عبر تونسي يهودي عن رغبته في الانخراط في الحزب الحر الدستوري. نذكر أيضا المحاولة التي تمت في شهر أوت من سنة 1952 وذلك عندما أعلن الأمين باي عن تكوين لجنة الأربعين التي سعى أن يشرك ضمنها كل القوى السياسية والاجتماعية واستشارتها قبل الرد على برنامج الإصلاحات الذي أعلنته السلطة الفرنسية. في هذا الإطار، تم تشكيل كل من المحامي أليار بسيس الذي سبق له أن تحمل خطبة عميد المحامين والذي سيدعى لاحقاً للمشاركة في الحكومة وشارل حدّاد رئيس مجلس الطائفة اليهودية.

مثل هذه المبادرات تدل على أن الحركة الدستورية وإن كان أغلبيّة أعضائها من بين التونسيين المسلمين فإنها لم تتقاعس عن التوجّه إلى العنصر اليهودي ولم تتردد في السعي إلى تشكيله في المعركة ضد الاستعمار الفرنسي.

2 - مساهمة التونسيين اليهود ضمن الحركة الاجتماعية بفرعيها النقابي والسياسي :

سيمثل المجال الاجتماعي ببعديه النقابي والسياسي الميدان الأساسي لإسهام التونسيين اليهود في التصدّي لانعكاسات السياسة الاستعمارية وذلك عبر الانضمام للحركة الاجتماعية بفرعيها النقابي والسياسي (الاشتراكي والشيوعي).

بعملية فرز للعدد الجملي وتوزيع أسماء الشخصيات حسب الأصول الإثنية فسنجد أن العدد الجملي يحتوي على 207 من التونسيين المسلمين و46 من التونسيين اليهود و178 من الفرنسيين و5 من الإيطاليين و2 من ذوي الأصول الإسبانية و2 من ذوي الأصول المجرية.

هكذا نرى أهمية دور الناشطين في المجال النقابي من أصل يهودي حيث مثلوا نسبة 10 في المائة من مجموع الإطارات النقابية التي سيّرت العمل النقابي وبرزت في الهياكل النقابية أو في الصحف في حين أن عدد السكان اليهود لم يصل أبداً إلى هذه النسبة.

ثالثاً : دور التونسيين اليهود في الحزب الشيوعي التونسي :

انخرط التونسيون اليهود منذ العشرينات ضمن الحركة الشيوعية التي ظهرت بتونس في بداية سنة 1921 عقب انقسام الحركة الاشتراكية بفرنسا وقد استقلّت الحركة بذاتها عن الحزب الشيوعي الفرنسي وأصبحت منذ غرة جوان 1936 حزباً شيوخياً تونسياً واصل قبول الانخراط صلبه لكلمن رغب في ذلك بقطع النظر عن جيناته الأصلية أو معتقده. نجد عند الاطلاع على أسماء الممضين على البيانات والمقالات في الصحف أو أعضاء الهيئات التسييرية أوالذين تم إرسالهم لحضور مؤتمرات الأمميين الشيوعيين في موسكو أسماء عديدة لمناضلين ينحدرون من الأقلية التونسية اليهودية مثل الأخوين فيكتور ولیون زانا في العشرينات وأوجين بسيس ولوسيان فالنزي وجورج عدّة في الثلاثينيات وموريis نیزار وجاك بلعيش وروبر ميمون وجورج عطال في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي وقد كان لهذه الأسماء وزنها في قيادة الحزب الشيوعي إلى جانب أسماء مناضلين ينحدرون من أصول مسلمة مثل علي جراد ومحمد النافع ومحمد جراد وخميس الكعبى وحسن السعداوي. بالمقارنة بين العدد الجملي للسكان التونسيين اليهود نلاحظ إن نسبة المناضلين من أصل يهودي في صفوف الحزب الشيوعي وفي هيئاته القيادية تفوق بكثير نسبة عددهم في المجتمع وهو ما أبرزه في محطّات عديدة وخاصة خلال الحرب العالمية وفي السنوات التي عقبتها بمظهر الحزب الذي طغى عليه حضور العنصر اليهودي، وهنا يطرح السؤال: لماذا اختار هؤلاء المناضلون الانضمام إلى

أولاً : في مستوى الإنخراط السياسي في الحركة الإشتراكية :

إثر الحرب العالمية الأولى وبالتحديد في مؤتمرها المنعقد بمدينة تور الفرنسية انقسم الحزب الاشتراكي الفرنسي إلى منظمتين: حزب اشتراكي وآخر شيوعي وذلك بالارتباط بالتطورات التي شهدتها الحركة الاشتراكية العالمية إثر انتصار ثورة أكتوبر البلشفية في روسيا سنة 1917. ولابد من التذكير هنا أنه كانت توجد بتونس آنذاك شعبة اشتراكية تابعة للحزب الاشتراكي الفرنسي وقد كان لأبار كتان الشاب التونسي اليهودي الذي درس بكلية الطب بليون دور أساسى في العمل على تأسيس أول فرع اشتراكي بتونس في سنة 1908 وأثر انهائه لدراسة الطب وعودته إلى تونس سيتّم الاعتراف بالجامعة الاشتراكية رسمياً باعتبارها فرعاً من فروع الحركة الاشتراكية والحزب الاشتراكي وسيتواصل الارتباط التنظيمي لهذه الجامعة بالمركز الفرنسي إلى استقلال البلاد في سنة 1956. أما الشخصية الثانية في الحركة الاشتراكية وهي من أصل يهودي أيضاً والتي واصلت عمل المؤسس فهي الدكتور الي كوهين حضرية الذي تولى الإشراف على الجامعة الاشتراكية بتونس طيلة ثلاثة عقود وكان من أبرز محرّري الصحيفة الناطقة باسمها وهي «تونس الاشتراكية» وقد تخلّى عن النشاط السياسي وواصل العيش في تونس حيث تعاطى مهنة الطب إلى بداية سبعينيات القرن الماضي.

ثانياً: إسهام التونسيين اليهود في الحركة النقابية :

سأكتفي هنا بالتعليق على بعض الأرقام التي أوردتها الباحثة والمؤرخة جوليات بسيس في كتابها الصادر سنة 1986 تحت عنوان «المؤسّسون». ينتمي البحث إلى جنس «السير البيوغرافية» وقد جمعت فيه أهم الأسماء التي استطاعت حصرها من بين الذين نشطوا في المجال النقابي. توصلت الباحثة إلى إدراج 497 اسم والتعرّيف بهم بصفة متفاوتة حسب ما أمكن لها جمعه من معلومات عن أصحابها وهي تشمل شخصيات ومسيرين من الذين انتما إلى التجارب النقابية المتعددة سواء تجربة محمد علي في العشرينات مروراً بتجربة القناوي في الثلاثينيات وصولاً إلى تجربة نقابية ذات فرعين في الأربعينيات والخمسينيات من خلال منظمتي الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي ذي التوجه الشيوعي. إذا قمنا

كانت تصدر بتونس آنذاك في حين كنت أنا أوزع صحفة لافينير "مستقبل تونس" وهي لسان الحزب الشيوعي التونسي. هذا دليل أننا كنا أمام عملية اختيار لم ندر كل أبعادها ونتائجها: إما الانخراط مع بقية التونسيين في الكفاح من أجل تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي أو اعتبار أن الحرية تكمن في الذهاب إلى فلسطين والمساهمة في بناء دولة إسرائيل. بدا آنذاك الانضمام إلى الحزب الشيوعي بمثابة التحقيق الآني وال سريع لحلم دون المخاطرة بالذهاب لا إلى فرنسا أو إلى إسرائيل.

إن تحقيق التآخي بين المسلم واليهودي يبدو أيضاً ممكناً وسريعاً في الحزب الشيوعي، ففي رواية «قاقو» للكاتب والصحفي قي سيتبون أصيل مدينة المنستير نلاحظ أن الشخصية الأساسية وهو الشاب «قاقو» الذي تلقى تربية ترتكز على الانتماء الديني للجامعة اليهودية سيعتبر طريقة تفكيره بعد الانخراط في الحزب الشيوعي. الحل الحقيقي لأزمة الهوية التي كان يعيشها سيكون في الخروج عن المجموعة الأصلية للالقاء بالآخرين ومشاركتهم أفكار الحرية والمساواة وهو ما سيوفره له الحزب الشيوعي باعتباره فضاء الالقاء بين الجميع بقطع النظر عن الروابط الاثنية أو الدينية. نلاحظ نفس الأمر من خلال شهادة أخرى وهي للأستاذة بيتريس سلامة التي تحدّر من عائلة يهودية استقرت في مدينة قابس بالجنوب التونسي والتي اشتغلت لمدة خمسة عشرة سنة في التعليم تقاسمتها بين التدريس بمعهد العلوية قبل الالتحاق للتدرис بالجامعة التونسية في بداياتها. تذكر السيدة سلامة أن انخراطها في الحزب الشيوعي جعلها تفهم أكثر القضية الوطنية التونسية وتنتهي إلى أن انتسابها للحزب جعلها تفهم أكثر ما كان يتعرّض إليه التونسيون من حيف وإقصاء خاصة بعد ما لاحظته من تعسّف طال التونسيين بعد جانفي 1952 وهو ما حفّزها لتشارك وتدافع عن تلاميذها في المدرسة العلوية وتكون قرية منهم. تعتبر الأستاذة سلامة إن الحزب الشيوعي كان بمثابة الجسر الذي يسر لها الاقتراب من قضايا بلادها تونس لأنها عايشت داخله هذا التمازج بين مختلف الأجناس والأديان وهي تقرّ أن انتماءها للحزب الشيوعي هو الذي جعلها تهتمّ ليس فقط بمقاومة الاستعمار ولكن كذلك بتاريخ البلاد في الفترة التي سبقت قدوم الاستعمار والبحث في أسباب ذلك الأمر الذي دفعها بدوره إلى البحث في ثورة علي بن غداهم المعادية للجباية التي حدثت في تونس سنة 1864.

صفوف الحزب الشيوعي وفضله عن الأحزاب الأخرى. لقد كان للظروف التاريخية دورها في هذا الإقبال على الحزب الشيوعي على غرار قيام جبهة عالمية مناهضة للأنظمة الكليانية التي اضطهدت اليهود، كما أنّ الحزب الشيوعي كان ذا صبغة أممية فكان يقبل انخراط الجميع في صفوفه بدون النّظر إلى الجنس أو الانتماءات الدينية الأمر الذي حول الحزب إلى ائتلاف من المجموعات والأصول في بلد واحد.

لابد من الإشارة في هذا المجال إلى وجود إنتاج أدبي ومذكرات عديدة لمناضلين استعرضوا فيها تجاربهم الشخصية ومسيرتهم النضالية والظروف التي أدت بهم إلى الانخراط في الحزب الشيوعي، فعلى سبيل المثال يمكن ذكر مسيرة المناضل جلبار نقاش التي دونها في كتاب يحمل عنوان «كريستال» (نسبة لنوعية من السجائر التي كان يدخّنها في السجن واستعمل ورقات عليها لتحرير المادة التي سيعتمدها لاحقاً عند كتابة مذكراته). نعرف من خلال هذه المذكرات إنّجلبار نقاش انخرط في الحزب الشيوعي منذ أن كان تلميذاً قبل أن يغادره نتيجة اختلاف فكري مع برنامجه ليتحقق بعد ذلك بتجربة جديدة ضمن منظمة يسارية أخرى معروفة باسم «افق» وقد تسبّب له نشاطه ضمنها في الاعتقال والمحاكمة لمدة عشر سنوات بداية من سنة 1968. يتحدث جلبار نقاش في «كريستال» عن ظروف انخراطه وعن سبب اختياره للحزب الشيوعي دون سواه من الأحزاب. لقد بدأ له وهو الشاب المنحدر من عائلة يهودية أنّ الشيوعية مجال يمكن من تحقيق العدالة والحرية ونبذ العنصرية، لذلك كتب في إحدى صفحات كتابه «أنا كيهودي أحبّ أن أشارك في حركة سياسية يتساوى فيها الجميع بقطع النظر عن دينهم أو جنسهم» وهذا ما يفسّر -حسب رأيه- انخراطه في صفوف الحزب الشيوعي ورفضه الانضمام للحزب الدستوري أو إلى المنظمات الصهيونية التي كانت تنشط حينئذ لإقناع الشباب اليهودي بضرورة الهجرة إلى إسرائيل.

نجد نفس التوجّه في مذكرات معلم تونسي من أصل يهودي قمت باستجوابه في تسعينات القرن الماضي. يذكر أبّار حايك أنه «في نفس السنة التي انخرطت فيها في الحزب الشيوعي التونسي سنة 1943 تم تكليفه بتوزيع جريدة الحزب وبيعها للمارين وكثيراً ما كنت ألتقي في أنهج المدينة مع شباب من أصول يهودية وهم من أصدقائي لكنهم كانوا يوزعون صحفاً ذات طابع صهيوني مثل صحيفة "الأرض الموعودة" التي

على الاستقلال ونفس الشئ بالنسبة للجزء من الطائفة اليهودية الذي تأثر بالمشروع الصهيوني والذي رأى أن الحل يمكن في الذهاب إلى إسرائيل والاستقرار فيها. ومهما يكن من أمر، يتحتم النظر إلى هذا الجانب - كما هو الأمر بالنسبة لبقية الجوانب- من تاريخ البلاد التونسية وفق منهج عقلاني لا ينجر بسرعة إلى العواطف وردود الفعل السهلة. فتاريخ كل بلد محفوف بالتعقيدات والتقلبات التي يتحتم فهمهما بالرجوع أولاً وقبل شيء إلى الظروف التاريخية التي حتمت وقوعها بذلك الشكل حتى يتم انتفاضي الأحكام المسبقة والإسقاطات السهلة التي تعقد أكثر الواقع الحالي أكثر مما تساهم في إيجاد الحلول.

بعض المراجع التي يمكن العودة إليها لمزيد الاطلاع والاستفادة حول هذا الموضوع :

- القردغلي (حبيب)، تطور الحركة الشيوعية بتونس (1919-1943)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1992.

- Bessis (Juliette), *Les fondateurs. Index biographique des cadres syndicalistes de la Tunisie coloniale (1920-1956)*, l'Harmattan, 1985.
- Sebag (Paul), *Histoire des juifs de Tunisie. Des origines à nos jours*, l'Harmattan, 1991.
- Hamza (Hassine-Raouf), *Communisme et nationalisme en Tunisie. De la «libération» à l'indépendance (1943-1956)*, Université de Tunis, 1994.
- «La Tunisie au miroir de sa communauté juive», dossier sous la direction de Abdelbaki Hermassi, in *Confluences Méditerranée*, N°10 Printemps 1994.
- *Histoire communautaire, histoire plurielle, La communauté juive de Tunisie*, Actes du colloque tenu à la Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de Manouba (25-27 février 1998), Centre de publication universitaire, 1999.
- *Juifs et musulmans en Tunisie ; Fraternité et déchirements*, Actes du colloque de Paris-Sorbonne, 22-25 mars 1999, direction de la publication SoniFellous, Somogy éditions d'Art, Paris 2003.
- Zytnicki (Colette), *Les juifs du Maghreb. Naissance d'une historiographie coloniale*, Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 211.

هذه بعض الأمثلة من شهادات متنوعة تبين الأسباب التي جعلت جزءا هاما من أفراد الجماعة التونسية اليهودية تختر الانتماء غداة الحرب العالمية الثانية إلى الحزب الشيوعي التونسي وتساهم من خلاله في الحركة الوطنية التونسية. كما سبق أن أسلفنا ذكره، فإن هذا المسعى لتشريك التونسيين اليهود وجعلهم مهتمين بقضايا بلادهم كان قد شغل أيضا حركة الشباب التونسي والحزبين الدستوري القديم والجديد، لذلك لا غرابة في أن يتواصل هذا المجهود من قبل النخب السياسية التونسية بعد حصول البلاد على استقلالها فمعلوم إن الحكومة التي كونها الزعيم بورقيبة ضمت تباعا كلّا من المحامي ألبار بسيس الذي تولّ منصب كاتب الدولة للتعمير ثمّ رجل الأعمال اندرى باروش.. ولا غرابة أن يتم في مارس 2011 دعوة كلّ من المؤرخة صوفي بسيس والمناضل جيلبار نقاش للانضمام إلى عضوية اللجنة العليا للإصلاح السياسي ولتحقيق أهداف الثورة، ولا غرابة أيضا - ولو أن الأمر أحدث صدمة لبعضهم - أن يتم التفكير في جانفي 2014 في دعوة السيد روني الطرابلسي التونسي اليهودي أصيل جزيرة جربة والناشط في مجال السياحة ليكون عضوا في الحكومة التي كان السيد مهدي جمعة يتهيأ حينئذ لتشكيلها. إن مثل هذه المبادرات التي قد يتم التفكير فيها اليوم وغدا لتشريك التونسيين اليهود في الحياة السياسية بلادهم هي بمثابة العودة إلى المخزون الإصلاحي للنخبة التونسية التي سعت في فترات عديدة من تاريخ البلاد التونسية إلى تشكيل كل من له كفاءة واقتدار في مجاله من التونسيين بقطع النظر عن دياناته أو أصوله الاجتماعية.

لا يمكن فهم إسهامات التونسيين اليهود في الحياة السياسية التونسية إلا بالرجوع إلى الظرفية المحلية والعالمية التي حصلت في النصف الأول من القرن العشرين حيث عرفت الجماعة التونسية اليهودية تجاذبات عديدة وتأثيرات خارجية متنوعة. فإذا كان الأمر طبيعياً أن يهتم جزء من التونسيين اليهود بالمسألة الوطنية والاجتماعية ويسعون إلى المشاركة فيها بأشكال مختلفة، فلابد أن ننظر إلى الأمر بصفة عقلانية ونتناوله بعيدا عن كل تشنج بالنسبة للجزء من النخبة التونسية اليهودية التي كانت ترى أن الحل يمكن في الاندماج ضمن الحضارة الفرنسية ولذلك نراها تطالب بالجنسية الفرنسية زمن فترة الحماية وتسعى للذهاب إلى فرنسا بعد حصول البلاد

التفاعل العجيب بين اللهجة التونسية واللغة المالطية

كمال شواشي¹

توصف المالطية عادة بكونها لغة غير مشابهة إطلاقاً لغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى وتعلق الأسباب بخصوصياتها الصوتية والكتابية فيوصف حالياً أصلها بالـ«سامي» مما يستحضر حتماً إلى الذهن (وعلى سبيل الخطأ) ذكر لغات كالفينيقية واليونانية والعبرية... غير أنه لا توجد في العالم لغة واحدة شكلت شخصيتها أكثر من العربية التونسية فقد ورثت المالطية من هذه الأخيرة صفاتها الأساسية بين القرنين ـ9 والـ13 الميلاديين. هذا وبالرغم من لجوء المالطية فيما بعد إلى استعارات لغوية مكثفة من الإيطالية والقلالية، بشكل رئيسي، ومن الإنكليزية في العقود الأخيرة، فإن هيكلها الأصلي (أي النظام النحوي التشكلي) لم يتغير منذ ذلك الحين.

قمنا إذن، اقتداء بعلماء الآثار، «بخدش» ليس ما بين السطور ولكن ما تحتها، اكتشفنا فجأة بحراً من التطابقات الملفتة للنظر والمتنوعة بين المالطية والعربية التونسية : من الكلمات البسيطة اليومية إلى التعبير الاصطلاحية والأمثال الأكثر تفصيلاً ناهيك عن نفس النّواة النحوية أو يكاد.

لقد نقل الباحث إلى العربية التونسية والفرنسية نصوصاً من الأدب المكتوب والشفهي الماطلي، مثل قصيدة «الكانطيلينا» التي تعود إلى القرن الـ15 ميلادي حتى يستطيع الجمهور أن يكتشف كيف ولماذا أصبحت المالطية بمرور الزمان لغة يتيمة. تونس، التي هاجر إليها الآلاف من الماطليين بين القرنين ـ19 والـ20، تحولت في يوم

¹ باحث في الأنثروبولوجيا مختص في الثقافة المادية وغير مادية للبحر المتوسط.

² تؤرخ بعض أنهج العاصمة تونس لهذا التواجد التاريخي للوافدين من الماطليين مثل نهج الماطلين (أصبح حالياً نهج المنجي سليم) ونهج لفالفات نسبة لعاصمة ماطا.

محاولة لترجمة الكانتيلينا⁴ المالطية بالعربية التونسية المعاصرة

1 - Xideu il cadayegireni tale nichadithicum

شدوا القضاء يا جيراني، طالع (أو : «تعالوا») نحدّثكم

O voisins, cessez vos activités car je vais (viens) vous raconter

2 - Mansab fil gueruelenisabfohomorcom

ما انصاب في الواري ولا انصاب في عمركم

Ce que l'on ne trouve ni dans le passé ni dans votre vécu

3 - Calb mehandihechakimsoltanuile mule

قلب ما عندها حاكم، سلطان ولا مولى

Un cœur sans guide, autorité ou maître

4 - Bir imgamicrimitinebetiraginmucsule

(في) بئر غامق («معمق») (أي : «عميق») رمتني بdroج مصقوله (أو «مسولة»)
أو «مكسورة»)

M'a jeté dans un puits profond aux marches usées (délavées/effritées)

5 - Fenh al garcanenzel fi tiragminzeli

فين حيران عالغرقة، نزل في درج منزلي

Là, fou d'amour au point de désirer me noyer, je descends les marches
de mon existence (ma destinée)

6 - Nit lavynargianinzildeyem fil bachar il halii

نطلع ونرجع ننزل ديمة (أي : «دائماً») في البحر العالى (أو : «البخار الغالى»)
Je monte et redescends toujours (ainsi) dans la mer démontée (haute)
(ou encore : «entre les vapeurs bouillonnantes»)

7 - Huakit hi mirammitilizimennibni

وَقَعَتْ هِيْ (أي : «طاحت لي») مِرْمَتِي الْيِ (عَنْدِي) زَمَانْ نَبْنِي (فِيهَا)
Ma maison, que j'ai en chantier depuis longtemps, s'est effondrée

⁴ قصيدة حزينة كتبت في القرن الخامس عشر (1470م) وهي تعدّ أقدم نصّ مكتوب في الأدب المالطي. اكتشفت سنة 1968 وترجمت إلى عدّة لغات.

من الأيام إلى مختبر طبيعي للشّمل اللّغوی الذي أكده التّفاهم المتّبادل التّنافسي في الحياة اليومية المتميزة آنذاك بظروف معيشية قاسية للجميع.

سيتمكنكم تعلّم قواعد اللغة المالطية³ من خلال قراءة بعض النّصوص عبر اعتماد منهج الحكّ تحت السّطور.

في الخاتمة أذكّر بما قلته في البداية بخصوص الجذور التونسيّة للغة المالطية وهو أمر يثبت أنّ التعايش بين الأديان ليس مجرد كلام إنشائي بل هو واقع تاريخي ولغوی ولذلك فإنّي كلّما أسمع كلمة الله أو رمضان أذكّر أجراس الكنائس في دمشق القديمة حينما كانت تدقّ دقائق قليلة بعد آذان الجماعة داعية الإنسان إلى ملاقاة الخالق الواحد الأحد.

³ للإستفادة بالإمكان الرجوع إلى مؤلف الباحث باللغة الفرنسية : Kamal Chaouachi : La culture orale commune à Malte et à la Tunisie (sous-titre : Contribution anthropo-linguistique au long débat sur la nature de la langue maltaise). Paris, Ed. L'Harmattan, juin 2014, 130 pages. Coll. «Histoire et Perspectives Méditerranéennes», ISBN : 978-2-343-03577-2, illustré).

- 16 - biddilihe inte il mikenilliyeutihe
بدلها أنت للمكان اللي يواتيها
Trouve-lui (donc) un endroit qui lui convienne (davantage)
- 17 - Min ibidill il mikenibidil il vinturaChanger de lieu, c'est changer de vie (d'existence, destinée)
- 18 - halex liradi 'al col xebirsura
على خاطر (أي : «لأنه») الأرضي على كل شبر صورة
Car tout terrain possède une image qui lui est propre
- 19 - hemme arbayda v hemmeardseude et hamyra
ثمة أرض بيضاء وثمة أرض سوداء وحمراء
On trouve (ainsi) de la terre blanche, rouge et noire
- 20 - Hactar min hedau nhemeted minnetama(m/r)ra
على خاطر(أي : «لأنه») من هذومة، ثمة (ما) ترد منها ثمرة (ثمرة)
أو : «اختر من هذومة، ثمة (ما) تريده منها ثمرة (ثمرة))
Parce que de celles-ci (ces terres), proviennent des fruits
(ou encore : «Choisis donc parmi ces terres celle dont tu désires des fruits)

- 8 - Mectatilixmihallimin mechitalitafalmorchi
ما أخطئت ليش معلمين اماً أخطأ لي طفل (أي : «طين») مرخي (أي : «متراخي»)
La faute n'incombe pas aux maçons (artisans) mais à l'inconsistance de l'argile
- 9 - fen timaytinsibilgebel sib tafalmorchi
فين تمييت نصيب الجبل (أي : «الحجر»)، صبت طفل (أي : «طين») مرخي (أي : «متراخي»)
Alors que je souhaitais trouver de la pierre, j'ai trouvé de l'argile faible
- 10 - vackit hi mirammti
وقدت هي (أي : «طاحت لي») مرمتني
Ma maison en chantier s'est effondrée
- 11 - Huakit hymirammtiNizlit hi li sisen
وقدت هي (أي : «طاحت لي») مرمتني، نزلت هي (أي : «نزلت لي») للسيسان
Ma maison en chantier s'est effondrée, jusqu'à ses fondations
- 12 - Mectatilix il mihallimin ma kitatili li gebel
ما أخطئت ليش المعلمين
اماً أخطأ (أو : تقطّع) لي الجبل (أي : «الحجر»)
La faute n'incombe pas aux maçons mais à la pierre qui m'a manqué
- 13 - fen tumaytinsib il gebel sib tafalmorchi
فين تمييت نصيب الجبل (أي : «الحجر»)، صبت طفل (أي : «طين») مرخي (أي : «متراخي»)
Alors que je souhaitais trouver de la pierre, j'ai trouvé de l'argile faible
- 14 - Huakit thimirammitililizimennibni
وقدت هي (أي : «طاحت لي») مرمتني اللي (عندي) زمان نبني (فيها)
Ma maison, que j'ai en chantier depuis longtemps, s'est effondrée
- 15 - Huec ucakit hi mirammitivargiaibnie
وهاكة (أي : «هكذا») وقعت هي (أي : «طاحت لي») مرمتني،
(ف)(تو) نرجع نبنيها (أو : «أرجع أبنيها»)
Ainsi s'est effondré le chantier de ma maison. Je vais la reconstruire

- 10 - Li ma Kiensce min i uuennesha
لو ما كانش من يؤنسها
S'il n'y avait eu quelqu'un pour lui tenir compagnie
- 11 - Li ma Kiensce min i charisha
لو ما كانش من يحرسها
S'il n'y avait eu quelqu'un pour veiller sur elle
- 12 - Kecu tepki el giuhphllsira
كانت ستبكي (من) الجوع في (العيشة) العسيرة
أو : «كانت ستبكي (من) الجوع كأسيرة» أو : «مثل الأسرى»
Elle (l'île) aurait pleuré de faim et souffrance
(ou : «comme captive» ou «comme les captifs» (de guerre))
- 13 - Enti el ferh, u l' henataana
أنت الفرح والهباء متعانا
Car tuesnotre joie et notre bonheur
- 14 - Cotoner daul ta aineina
«قطونيير» ضوء متاع عينينا
Toi, Cotoner, lumière de nos yeux
- 15 - Tant li e Sema i challicchdeina
ما دام السماء تخليلك بحذائنا
Tant que le Ciel t'aisera à nos côtés,
- 16 - Fl'achar bart i colna e schana
فلاخر برد تكون عندنا السخانة
Nous aurons chaud, même quand le froid sera des plus vifs

محاولة لترجمة قصيدة «مايو جاء بالورد والزهر» المالطية بالعربية التونسية المعاصرة

- 1 - Mejju gie' bl'Uard, u Zahar
مايو جاء بالورد والزهر
Mai est arrivé avec des roses et tout en fleurs
- 2 - Aadda Ibart, e Sceta, u l' Beracq
تعدى البرد، الشتاء والبرق
Froid, pluie et orage sont passés
- 3 - T'ghattiet l'art benuar u l'Uueracq
تعطت الأرض بالنوار والأوراق
Le sol s'est couvert de fleurs et de feuilles
- 4 - Heda e riech, seket el Bachar
هذا الريح وسكت البحر
Le vent s'est calmé et la mer s'est tuée
- 5 - Tar e schab men nuecee'Sema
طار السحاب من وجه السماء
Les nuages, dans le ciel, se sont dissipés
- 6 - Sa f'l'eGebielneptet el chdura
صفا الجبل، نبتت الخضرة
La montagne s'est éclaircie et la verdure y a poussé
- 7 - Regeet t'ghanni col Aasfura
رجعت تعني كل عصفورة
Les oiseaux se sont remis à chanter
- 8 - U' f' el fercolcqalb t'ertema
وفي الفرح كل قلب ترمي (ارتمنى)
Et tous les coeurs se sont emplis de gaieté
- 9 - E qailaferhkienfe di Gesira
وقلة فرح كانت في هذه الجزيرة
Et, peu de joie aurait connu l'île

ترجمة سفر «نشيد الأناشيد»

1 - L-isbaħ għanja, ta' Salamun:

نَسِيدُ الْأَنَاسِيدِ لِسُلَيْمَانَ

2 - "Ha jbusni bil-bews ta' fommu. Ghax l-espressjonijiettiegħek ta' mħabbahumaaħjar mill-inbid.

فَإِنْ تَعَابِرَ حُبُّكَ أَشْهَى مِنْ الْخَمْرِ لِيُقْبَلَنِي بِقُبُلَاتِ فَمِهِ

5-"Sewda jien, immasabiħha, O bniet ta' Ĝerusalem, bħat-tined ta' Kedar, immabħad-drappijiet tat-tinda ta' Salamun.

**أَنَا سَمْرَاءُ، وَلَكَنِي حَسْنَاءُ يَا بَنَاتُ أُورْشَلِيمَ،
كَخِيَامَ قِيدَارَ، كَشَقْقِ سُلَيْمَانَ**

6-Tharsux lejja ghax jien samra, minħabba li ratni x-xemx. Ulid ommi rrabjaw miegħi; qabbduni nieħu hsieb l-għeliegħi tad-dwieli, għalkemm l-għalqa tad-dwieli tiegħi, dik li kelli jien, ma ħadtx hsiebha.

**لَا تَنْظُرْنَ إِلَيْيَ لَأَنِّي سَمْرَاءُ، فَالشَّمْسُ قَدْ رَمَقَنِي بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ. جَعْلُونِي
نَاطُورَةً الْكُرُومِ، أَمَّا كَرْمِي فَلَمْ أَنْطُرْهُ**

ترجمة نص أبانا «Pater Noster»

- «Missierna li Inti fis-smewwiet

[arabelitt. : «Abâna L-Ladhifī s-samâwât»],

- JitqaddesIsmek, tiġiSaltnatek u jkun li tridInt

[ar. litt. : «Li yataqaddasIsmuka, «Li ya'tîmalakûtuka,
LitakûnMachi'atuka»]

- Kiffis-semahekdhafl-art

[ar. litt. : «Kamâ fi-s samâ'i, kadhalika 'ala l-ardh»].

- Hobżna ta' kuljumagħtinallum

[ar. litt. : «A'tinahubzana, kafāfayawmina»],

- Aħħriflnadnubietna

[ar. litt. : «Wa 'għirlanādhunūbanāwaħatāyānā»]

- Bħalmaaħnanaħfrulil min huħatigħalina

[ar. litt. : «Kamānahnunagfir li man 'asâ'a Ilaynâ»];

- La ddaħħalniex fit-tiġrib

[ar. litt. : «Lâtudħilanâ fi-t-tajārib»],

- Izdaeħħlisnamid-den

[ar. litt. : «Lâkinnajjînâ min ash-shirrîr»].

- Hekkikun »

[ar. litt. : «Amîn »].

ترجمة سورة الفاتحة باللغة المالطية

- "F'isem Alla, li fihi ssib il-Grazzja, il-Hniena
[ar. littéral : Bismi l-Lâhi R-Rahmân Ar-Rahîm]

Kull tifhirjgħoddgħal Alla, Sid id-dinjet kollha
[ar. litt. : Al-hamdu li-l-Lâhi Rabbi l-`Alamîn]

Li hu mim libil-Grazzja, bil-Hniena
[ar. litt. : Ar-Rahmân Ar-Rahîm]

Sid ta' Jum il-Ġudizzju
[ar. litt. : Malikiyawmi d-Dîn]

Lilekbissinqimu u Lilekbissnit olbu l-ġħajjnuna
[ar. litt. : Iyyā Kana` buduwaiyyā Kanasta`iñ]

Iggwidana fit-triqit-tajba
[ar. litt. : Ihdinâ s-sirâta l-mustaqîma]

It-triq ta' dawk li fuqhom ferrixti barkiet tiegħek, dawkl fuqhom ma
ġibdux id-dispjaċir, u dawk li ma żgarraw xmit-triq it-tajba."
[ar. litt. : Sirâta l-ladīna an`amta `alay hum gayri l-magħdûbi
`alayhim walâ -d-dâllîn]

شهادات

المسيحيون والعمل الإنساني¹

الأب جوناثان باهاقو²

أنا من نيجيريا وأنحدر من عائلة مختلطة. والدتي مسلمة وكانت تؤدي صلاتها كل يوم، ووالدي مسيحي وكان يذهب للكنيسة بانتظام. لقد عاشا معاً ولم يكن لاختلف بينهما أدنى تأثير علينا.

بن المؤسف حقاً أن يرتبط عند البعض الحديث عن نيجيريا بجماعة بوكتو حرام، هذه الجماعة الإرهابية التي أرادت أن تقسم البلاد. في الواقع ليس الدين هو سبب النزاع في نيجيريا بل السياسة والمشاكل الاقتصادية وإن شاء الله لن يكون الدين عامل فرق بيننا.

أريد أن أتحدث عن مخيم الشوشة وتحديداً فيما يتعلق بالمسيحيين والعمل الإنساني.

عينت للعمل بمدينة صفاقس قبل الذهاب إلى مخيم الشوشة، لفائدة جمعية الإيدمان تحت إشراف الدكتور زحاف بمعدل ثلاثة أيام كل أسبوع. كنا خمسة متطوعين نعمل لفائدة جمعيات ذات اهتمامات مختلفة وكنا نشارك تجربة إنسانية ثرية مع أشخاص لم يكونوا قادرين على الاعتناء بأنفسهم. لم تكن مهمتنا سهلة ولكن الحب هو ما كان يدفعنا للعمل.

في مخيم الشوشة، تأثرت كثيراً باحتشاد التونسيين لإغاثة الهاجرين من جحيم الحرب، فقد انضموا إلى جمعيات وأرسلوا قوافل إغاثة بداعي إنساني وليس ديني. أذكر أيضاً كرم الضيافة الذي ميز استقبالاً للآجئين وأنا على ثقة تامة بأن هؤلاء لن ينسوا مطلقاً ما لقوه من حفاوة الترحيب.

¹ مداخلة مترجمة من الفرنسية إلى العربية بتصرف

² أحد الآباء البيض.

لهم شهادتي جانبا شخصيا، ولذلك أعترف لكم بأنني أحسست بالضعف والفقر الروحي إزاء تلك الوضعيّات الإنسانية الهشة. كانت السلطات المختصة تملك الإمكانيات للتدخل، أمّا أنا فقد وجدت نفسي عاجزا عن مدد المساعدة للأشخاص الذين كانوا يعانون. جميعنا معنّيون بالإنسانية، فمهما كانت انتماءاتنا الدينية فإنّنا نتشارك نفس الإله.

أنا بالقول بأن الكنيسة لم تتجاهل مطلقا ما مرّت به تونس ولن تفعل ذلك أبدا وسوف تواصل دعم الشعب التونسي في كفاح الاحترام والعمل معه جنبا إلى جنب.

كانت فرق الإغاثة الإسلامية متواجدة هناك وكذلك البروتستانت حينها قررت الكنيسة الكاثوليكية أنّه يجب أن لا تبقى مكتوفة الأيدي إزاء ما يحدث، فذهبنا. عملنا جنبا إلى جنب في الإحاطة باللاجئين والاستماع إليهم ولم يكن دورا سهلا كما يبدو : لقد كانوا يرددون باستمرار نفس الحكايات وكان ذلك يتطلب جهدا، كما نعلم أنّهم بحاجة للتنفيذ عمّا بدا لهم.

كان المخيم مؤقتا إذ تم إجلاء الكثير من اللاجئين إلى بلدانهم. ولكن ظلا لكيثرون هناك رغم الإعلان الرسمي عن إغلاق المخيم. أحس أولئك بأن الجميع تخلى عنهم سواء الدولة التونسية أو المجتمع أو المفوضية العليا للاجئين.

يمكن تقسيم من ظلّوا إلى قسمين : العض ممن تم رفض متابعة حالاتهم من قبل المفوضية وخيروا بين الرجوع إلى الإيواء أو الرجوع إلى بلدانهم الأصلية أي بين ليبيا وبلدانهم التي فروا منها أصلا !! تحصل البعض الآخر على صفة لاجئ ولكن البلدان الأوروبيّة تراجعت عن منحهم حق الإقامة، عندها اضطرت المفوضية العليا للاجئين للتعاون مع الدولة التونسيّة قصد إيوائهم بمدينة مدين في انتظار أن تقرر دولة ما استقبالهم.

أصدقائي المسيحيّين، المسلمين، اليهود، البهائيّين، البوذيين، نتشارك جميعنا الإنسانية. الله كان محور العالم في فترة ما. الآن، تغير الأمر، فالذات الإنسانية مهمّة جداً وعليها العمل جمِيعاً على ضمان حرية الأفراد وتحقيق العدالة. علينا السعي إلى احترام حقوق الإنسان بالرغم من اختلاف دياناتنا. لقد تخلّيت عن الاستقرار من أجل الاستزادة من تجربة الآخر. فلنستمع إلى هذا الآخر ولنعمل على فهم أفضل لعاداته وديانته واحترامها.

كانت تونس دائماً ملتقي مثلكما تمت الإشارة إليه لتعيش الديانات وتتنوعها. يمكنني القول بأن الكنيسة كانت متواجدة في تونس منذ أمد طويل كما بين ذلك الأب جون فونتان. لقد سارت الكنيسة والشعب التونسي على نفس الدرب حتى صارت تمثل جزءاً من تاريخه.

LA PARTICIPATION DES MINORITÉS RELIGIEUSES DANS LA VIE POLITIQUE TUNISIENNE

Jacob Lellouche¹

Mon expérience dans la vie politique tunisienne a débuté longtemps avant 2011.

J'ai commencé en fait à m'intéresser à la jeunesse tunisienne. Je me suis d'abord occupé de jeunes chômeurs ayant arrêté l'école. Ma vision est que chaque citoyen devrait prendre un de ces jeunes perdus sous son aile pour lui donner les moyens de se construire et de bâtir son avenir; l'aider à recouvrer sa dignité et son espoir. On n'a pas attendu la révolution pour avoir une implication politique et sociale.

Lorsque je me suis présenté aux élections de l'Assemblée Constituante, je savais pertinemment que je n'allais pas avoir de siège. J'ai quand même eu à peu près mille voix (1000 votes pour la liste que je représentais). C'était une espèce de défi que je m'étais lancé à moi-même et à la société tunisienne de façon plus générale ; afin de briser des idées préconçues qui tendent à dire que le tunisien non musulman ne peut pas avoir d'implication dans la vie politique nationale, et qu'il ne peut pas s'investir pour construire sa nation.

Ce qui importe le plus pour moi, c'est le patriotisme : les gens qui se sont présentés aux élections, et ceux qui ont été élus pour siéger à l'ANC, ne sont pas tous pour ainsi dire musulmans : on y trouve des musulmans, des agnostiques, des gens qui sont athées, et ce parterre-là représente réellement la Tunisie. La Tunisie est une mosaïque, et j'avais pris l'habitude lors de ma campagne politique de représenter la société tunisienne un peu comme une main (la main de Fatma, un des symboles de la Tunisie par excellence), et je crois que ce qui fait la force et la puissance d'une main, c'est lorsque tous les doigts y sont représentés, mais bien entendu dans une main, tous les doigts ne se ressemblent pas (un court, un grand, un mince, etc.) et c'est la présence de tous ces éléments différents qui donnera à la main toute sa force. Et c'est exactement comme ça qu'est la Tunisie : nous

¹ Activiste tunisien juif.

lendemain de la révolution : L'association Dar El Dhekra, association pour la préservation du patrimoine judéo-tunisien. C'est une association strictement culturelle, nous n'avons rien de religieux ni de politique, mais nous souhaitons conserver ce patrimoine judéo-tunisien en lui donnant une dimension de patrimoine tunisien avant tout ; car si ce patrimoine représente une fierté pour la communauté juive, ce que les tunisiens non-juifs doivent savoir, c'est qu'il leur appartient également et qu'ils doivent également en être fiers. Ceci est valable aussi bien pour le patrimoine juif que pour le patrimoine chrétien ou autre. Vous chrétienté, nous avons été à l'origine des dogmes de la chrétienté ; si la Tunisie n'avait pas été là, la chrétienté ne serait pas ce qu'elle est aujourd'hui ! Et nous devons en être fiers ! Nous sommes fiers aussi de l'apport de la Tunisie à l'islam, nous sommes fiers de l'apport de la Tunisie au monde... Il faut que nous en soyons conscients.

Je crois (c'est mon point de vue et c'est ce que j'ai fait) qu'il est temps d'arrêter les débats politiques pour se concentrer sur les débats citoyens, et tendre la main à la jeunesse de ce pays et l'aider à pouvoir se projeter dans l'avenir aussi lointain soit-il ; parce que je crois que si les jeunes de Tunisie ne peuvent pas se projeter dans l'avenir, le pays n'ira pas très loin. Il faut donc leur donner des perspectives ; et c'est autour de ça que je crois qu'il faut qu'il y ait un consensus, et qu'on doit tous se retrouver. Citoyenneté avant tout, et projection dans l'avenir.

sommes une mosaïque, et chacun à son échelle doit s'impliquer dans la vie de notre pays.

La chose qui nous rassemble tous, c'est le patriotisme et l'amour de notre pays. La religion, ou les idées politiques sont bien évidemment importantes mais ne définissent pas l'ensemble de notre société.

J'ai sans doute eu la chance de ne pas siéger à l'ANC (pour diverses raisons) mais j'ai quand même eu la satisfaction d'avoir cassé cette idée reçue dont j'ai parlé plus tôt ; aussi bien dans l'esprit des tunisiens, que dans l'image que l'on donne de nous à l'étranger (un pays qui sort d'une révolution, et qui a envie d'envisager l'avenir, et de créer un avenir à sa jeunesse...) et aussi bien cet avenir que notre passé, est une mosaïque... nous ne sommes pas un seul bloc de marbre, nous sommes une multitude de petits fragments de marbre, assemblés et unis... et comme les mosaïques de notre histoire, cela fait des millénaires qu'elles existent (vous pouvez d'ailleurs aller les voir au musée du Bardo, bien que certaines ont pendant un temps orné les salons de particuliers), et elles sont encore résistantes à ce jour. Nous sommes un peuple résistant, avec toutes nos différences, et ce qui nous unit au-delà de tout, c'est l'amour de ce pays, et de cette terre sainte dans le sens le plus noble du terme ; parce que ce pays s'est ouvert à des dizaines de cultures, des dizaines de religions, Nous sommes un carrefour des civilisations, un carrefour culturel, et toutes les personnes qui sont arrivées dans ce pays, ne serait-ce que pour des séjours très courts, comme certains peintres ont pu le faire, sont tombées amoureuses de cette terre, de cette lumière, de ce pays, de ces gensÖ ils sont tombés amoureux de nous. On doit défendre notre mère-patrie autant que défendre la mère qui nous a donné la vie.

Je suis un peu désolé d'être présenté aujourd'hui comme une minorité, parce que je ne pense pas en être uneÖ je fais partie de la majorité, je suis tunisien avant tout. La Tunisie m'a donné cette appartenance en me donnant la nationalité et les papiers d'identité tunisiens, et cette appartenance doit être traitée comme une couronne au-dessus de nos têtes, j'en suis fier, et je rejette et renie l'appellation de « minorité ».

Petit à petit j'ai quitté mon implication politique politique, je représentais un parti politique qui s'appelait l'Union Populaire Républicaine ; après les élections, j'ai considéré que mon implication devait plutôt être sociale et citoyenne. Je me suis donc concentré sur une association que nous avons créé au lendemain de la révolution, en Février 2011 ; il s'agit d'une des premières associations créées au

التقرير الختامي

الّتّعايش بين أتباع الديانات : الصّعوبات والرّهانات بعد «الرّبيع العربي»

أ.د آمال قرامي¹

لا مناص من الإقرار بأنّنا عندما نطرح مسألة التّعايش بين أتباع الديانات التّوحيدية في تونس فإنّنا لا نتحدث عن واقع افتراضي أو تصوّر مغرق في اليوتوبيا، بل إنّنا نصف واقعاً معيشياً، وذلك ما أثبتته العديد الدراسات الميدانية وغيرها مما تمّ عرضه في هذا اليوم الدراسي. ولعلّنا لا نبالغ إن قلنا إنّ مظاهر التّعايش لا تزال مرئية بالرّغم من محاولات الطمس والتّجاهل، وتزييف الوعي نعيتها في ضروب من المأكل والمشرب والفنّ وغيرها من مظاهر الحياة اليومية التي تقاوم التّسيّج وصرامة الحدود.

بيد أنّ التّعايش بات اليوم وفي ظلّ سياق ما بعد الثّورة، يواجه عدّة صعوبات مثله مثل ممارسة الفنون وأشكال من التّعبير عن الفكرة أو العقيدة أو الاعتقاد وغيرها من الممارسات المتّصلة بنمط عيش التونسيين. ويمكن أن نجمل بعض هذه الصّعوبات التي لمسناها في النقاش الذي دار خلال هذا اليوم الدراسي في الآتي :

- 2 - يرغب عدد من المحافظين والإسلامويين في أن يحوّلوا التّعايش إلى ممارسة قديمة قد ولّى زمنها، ويريدون أن يرموا بهذا التّعايش في غياب النّسيان، ولذلك يصرّ هؤلاء على بتر الذّاكرة، يكفي أن ننصل إلى بعض المشرفين على تربية النّاشئة حتى ننتبه إلى عمليات تزييف الوعي. وفي مقابل محاولات قبر كلّ أشكال التّعايش يقاوم المؤمنون بأهميّة التّناقض، وثراء التنوّع هذا الواقع بالتأكيد بالرصيد المشترك بين المسلمين واليهود والمسيحيين حيناً، وبالاحتفاء بالوحدة الوطنية ورموز الكفاح الوطني أحياناً أخرى عليهم يُنشدون الذّاكرة الجماعية. يغدو التّعايش وفق حركة المدّ والجزر مسألة حياة أو موت،

¹ أستاذة بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمبنوبة

4 - لابد من الإقرار بأن التّعايش في ظل سياق انتشار العنف بأشكاله المختلفة: اللّفظي، والمادي، والنّفسي، والرمزي فضلا عن الإرهاب عسير إذ كيف يمكن للّتعايش الذي هو قيمة اجتماعية أخلاقية، أن يتشكّل في مناخ يسود فيه التّباغض، والصراع والتّوتر والكره... ويدعو إلى نبذ الآخر بدل استضافته واستقباله. وهكذا تغدو قيم الاحترام والكرامة والحرية وغيرها عصيّة على التجسيد في الممارسات التي تحقّق المجتمعية.

5 - التّعايش في سياق اقتصادي سمه التّدهور والهشاشة يصبح أمراً عصيّاً على التنفيذ إن لم نقل حلماً قابلاً للتحقّق فقط في المدينة الفاضلة إذ كيف لهذا الوضع الذي انتشر فيه الفكر الخرافي وتمأسس فيه الجهل وارتّفت فيه نسبة الأمية (الدينيّة والسياسيّة والحقوقية...) وتسلّل فيه خطاب أشباه الدّعاء الذين يدعون إلى نبذ المختلفين أن يسمح لمختلف الشرائح الاجتماعيّة أن تتجاوز اختلافاتها الطبقية والجيّلية والعنصرية والأيديولوجية والدينية؟

6 - يتحول التّعايش، في مناخ تتصارع فيه الأيديولوجيات وتلوح فيه أمارات عودة الدكتاتورية تحت مسميات عدّة: الدولة الشّيّوخراطية، وأنظمة الهيمنة وغيرها، إلى تجربة مريرة مشوّبة بالإخفاق. فالأغلبية تتحذّز قرار تحويل التّعايش إلى ممارسة إقصائية مادام الآخر لا يمثّل في نظرها إلّا الخصم اللّدود والعدوّ وما دامت تختزل المواطنة في حقّ المسلم الممثل للثّوابت والمعايير والمنتمي إلى الأمة في الوجود والتّمتع بالحقوق والامتيازات على حساب فئات أخرى لا تشترك معها في التّصورات والأحلام.

7 - لا يمكن أن يتحقّق التّعايش في إطار بنية نفسية هشّة، وطغيان مشاعر الخوف والانكسار والذلّ والاهانة... ولذا، لابد أن يدرك الجميع أنّ إنجاح المسار الانتقالي يتطلّب وعيّاً، وحسناً وطنيّاً، ومثابرة وعزماً وطول نفس. واهم من يعتقد أنّ مجتمع ما بعد الثّورة قادر على تخطّي العارقيل في زمن قياسي إنّما هو مسار معقد يتّأرجح بين لحظات تتحقق فيها الانتصارات وأخرى يحدث فيها الإحباط.

وتتعدد بعما لذلك محاولات النّبش في الذّاكرة للبحث عن براهين وحجج تُبكي المشكّفين في مشروع العيش معاً. وقد لاحظنا من خلال الورقات المقدّمة هذا الجهد المبذول من أجل تفعيل الذّاكرة ومقاومة النّسيان بعرض الشّهادات والنّماذج والوثائق وغيرها.

2 - يريد البعض أن نتحدّث عن التّعايش بصيغة الماضي: كنّا نحن أبناء الأسرة الإبراهيميّة نتقاسم أشياء، كنّا نحتفل معاً، كانت لنا مشاعر مشتركة... ويتحاشى أغلب سياسيّي مرحلة الانتقال الديموقراطي الحديث عن تعايش جميع التونسيين على اختلاف انتماماتهم الدينية باعتباره قيمة متأصلة. وهكذا يغدو ذكر اليهود والمسيحيّين وغيرهم من البهائيّين وغير المعتقدين والمتحوّلين من دين إلى آخر موضوعاً محظوظاً ومحرجاً في ظلّ مراعاة موازين القوى السياسيّة، وبحثاً عن مكاسب انتخابيّة بأسلوب براغماتي فجّ. وما من شكّ في أنّ العمى الممنهج والمقصود لا يبني واقعاً ديمقراطياً لأنّه يلغى، يهمّش ويقصي فئة من التونسيين ولا يملك جرأة الطرح ولا يعكس المسؤوليّة السياسيّة التي تعترف بالّتعددية السياسيّة والّتعددية الدينية. ومن هنا وأشارت بعض المداخلات إلى غياب إرادة سياسية واضحة على تكريس التّعددية والّدّفع بالفعل السياسي باتجاه تكريس الديموقراطية التّشاركيّة والّديموقراطية المسوّلة.

3 - كيف يمكن الاحتفاء بالّتّعايش في ظلّ حرب الهويّات القاتلة، والهوس الهوّوي؟ كيف يمكن تحويل قيم مجتمع العيش معاً إلى قيم فاعلة في السلوك والخطاب، والممارسة في سياق انشغل فيه السياسيّون بمسألة الهويّة، وحوّلوا وجهة التّحول الديموقراطي ليقسّموا التونسيين إلى علمانيّين وإسلامويّين؟ حين تختزل أبعاد الهويّة في الهويّة العربيّة الإسلاميّة تتحوّل الهويّة الثابتة إلى عائق أمام التّعايش، ويصبح الاستقطاب الحدّي بين الأغلبية، العلمانيّين والإسلاميّين، المسلمين والملحدين... ويغدو الحديث عن الآخر حديثاً عن العدوّ فهو الجحيم على حدّ تعبير جون بول سارتر ويعسر تبعاً لذلك إرساء العيش معاً وإقناع الذّوات الخائفة بأنّ الآخر هو مرآتي ولا يمكن بناء الهويّة بدونه، وأنّني أرى نفسي من خالله.

والكراهية. إنّ فعل المبدع فعل يتجاوز الحدود ويتحرّر من الأحكام المسبقة والصور النمطية ويدفع باتجاه أنسنة الإنسان.

5 - تنزيل التعايش في إطار ثقافة العيش معاً والتربية على المواطنة، وحقوق الإنسان، واحترام دولة المؤسسات والقوانين فهي التي تغرس وعيًا جمعيًا يؤمن بأهمية مشاركة جميع التونسيين على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم ومعتقداتهم، في البناء وتجسيده مجتمعية سوية.

6 - تحمل مختلف وسائل الإعلام دورها ومسؤوليتها في الفضح والتشهير والتنديد بممارسات تتنافى مع قيم العيش معاً فضلاً عن مبادرة وسائل الإعلام بفتح منابر الحوار بين المختلفين بعيداً عن حسابات البحث عن أكبر نسبة مشاهدة والكسب المادي، والإثارة. ويمكن القول إن رسالة الإعلاميين اليوم خطيرة باعتبار قدرتهم على صناعة الرأي العام والفعل في الواقع ومتى كان لديهم حسّ وطني ووعي بخطورة المرحلة استطاعوا فرض خياراتهم التي تخدم مبدأ العيش معاً.

7 - رصد الخطاب الديني المتشدد في جميع الفضاءات الذي يهدّد أمننا الاجتماعي والثقافي، وتفكيكه وبيان تهافته ومواجهته بخطاب تنويري من داخل المنظومة الدينية التوحيدية والكونية لبناء معرفة تؤنس الإنسان. ونذهب إلى أن تشكيل الشباب والنساء في بناء خطاب ديني يدعم ثقافة السلم والعيش معاً قادر على تحقيق الأهداف المنشودة.

8 - العمل على تكريس الممارسات الديمocratique التشاركيّة والاندماجيّة وتعزيز فلسفة *اللّاّنس*. فتعزيز هذه الممارسات في الفضاء الخاص وفي الفضاء العام، يجعلها جزءاً من ثقافتنا يساعد على تجذير قيم الحرية والمساواة والتضامن وغيرها. ونحسب أنّ الديمocratique الفاعلة التي تحتاجها في مثل هذه المرحلة، لا بدّ أن تتطابق مع مسار ثوري استلهمنا منه منظومة قيم مدنية حداثية وكونية كما أنها تعبر عن مخزوننا الثقافي وطبيعة تركيبة الشخصية المتوسطة المنفتحة على الآخر والمرحبة به والمتفاعلة معه والراغبة في الإفادة من ثراء ثقافتها.

هذه بعض المصاعب التي تجعل مشروع العيش معاً معطلاً أمّا سبل الخروج من هذا الوضع المتأزم فإنّنا نلخصها في الآتي :

1 - التدرب على خطاب المواطنة الذي يتقتضي اعتماد مصطلحات دقيقة غير مشحونة بحملة اقصائية. فالمؤسسة اللغوية مؤسسة تسلطية بالضرورة تمارس هيمنة من خلال خيارات لغوية ودلالات تروج لها. وعلى هذا الأساس، فإنّ تكريس قيم المواطنة وتحويلها من شعار إلى ممارسة يتطلب إعادة النظر في بنية الخطاب وأشكال التعبير. إنّنا بحاجة إلى التدرب على النّظرة : كيف ننظر باحترام إلى المختلف عقدياً وفكريّاً وثقافيّاً، والتّدرب على تطوير أنواعنا حتى تفتح وترحب وتتفاعل مع الآخر ولا تخشى مغامرة الإبحار في عالم مختلف عنا.

2 - إعادة النظر في برامجنا التّربويّة، ومناهجنا التعليمية، وهيكلة مؤسساتنا الجامعية، وتغيير آليّات تحليلنا، وكيفيّة صياغة استراتيجياتنا المستقبلية. إنّ استهداف أطفالنا وشبابنا من خلال خطاب هوسي يقصي الآخر، ويدّينه، ويصدر حرّياته وحقوقه قبل معرفته يجعل اليقظة والتحرّك والإصلاح أموراً مستعجلة لا تقبل التّأجيل. ونقدر إنّ أهمّ مشروع إصلاحي لابد أن نبادر بتطبيقه هو الإصلاح الهيكلّي لمناهجنا التعليمية التي لابد أن ننأى بها عن الصّراعات الأيديولوجية والهووية.

3 - تأهّب المجتمع المدني ويقظة كافة مكوناته من أجل التصدّي لكلّ ما يحول دون تحقق مبدأ العيش معاً. فكلّ مكونات المجتمع المدني هي القادرة على ممارسة الضغط، ومواجهة الانتهاكات، ومظاهر التمييز، والإقصاء والنّبذة وممارسات التّكفير وذلك من خلال الدورات التّدريبيّة والندوات والنشاط في المؤسسات التّربويّة وغيرها من الفضاءات.

4 - تفعيل المجال الثقافي، وتأسيس مشروع ثقافي بديل يحتفي بالاختلاف، ويرحب بالتنوع. ونقدر أنّ ضرورياً من الفنّ قادر على تغيير العقليّات، والتّسويق لخطاب يحترم المغاير، ويتجاوز محاولات تقسيم المجتمع والتّرويج لثقافة الموت.

الفهرس

3	تقديم وفاء محفوظي
7	تاريخ التعايش السلمي بين الديانات في تونس ناجي جلول
13	دور اليهود في الموسيقى بتونس محمد القرفي
17	الآباء البيض والثقافة التونسية (بالفرنسية) جون فونتان
25	مساهمة التونسيين اليهود في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي حبيب الفزدغلي
39	التفاعل العجيب بين اللهجة التونسية ولغة المالطية كمال شواشي
51	المسيحيون والعمل الانساني جوناثان باهاقو
55	مشاركة الأقليات الدينية في الحياة السياسية التونسية جاكوب لولوش
59	التقرير الختامي آمال قرامي

جماع القول إنَّ الصراع الذي نعيشه ملامحه ليس صراعاً بين الحضارات والديانات والثقافات بل هو صراع بين قوى التكوص والعودة إلى القرون الوسطى، وقوى التشبث بمنظومة حقوق الإنسان وثقافة السلم، ولا سبييل إلى الخروج من هذا الصراع إلا بتكريس الديمقراطية <التآنسية>، فهي المشروع الذي يجب أن يلتقي حوله الجميع وأن يشمروا على السواعد بهدف تحقيقه على أرض الواقع.